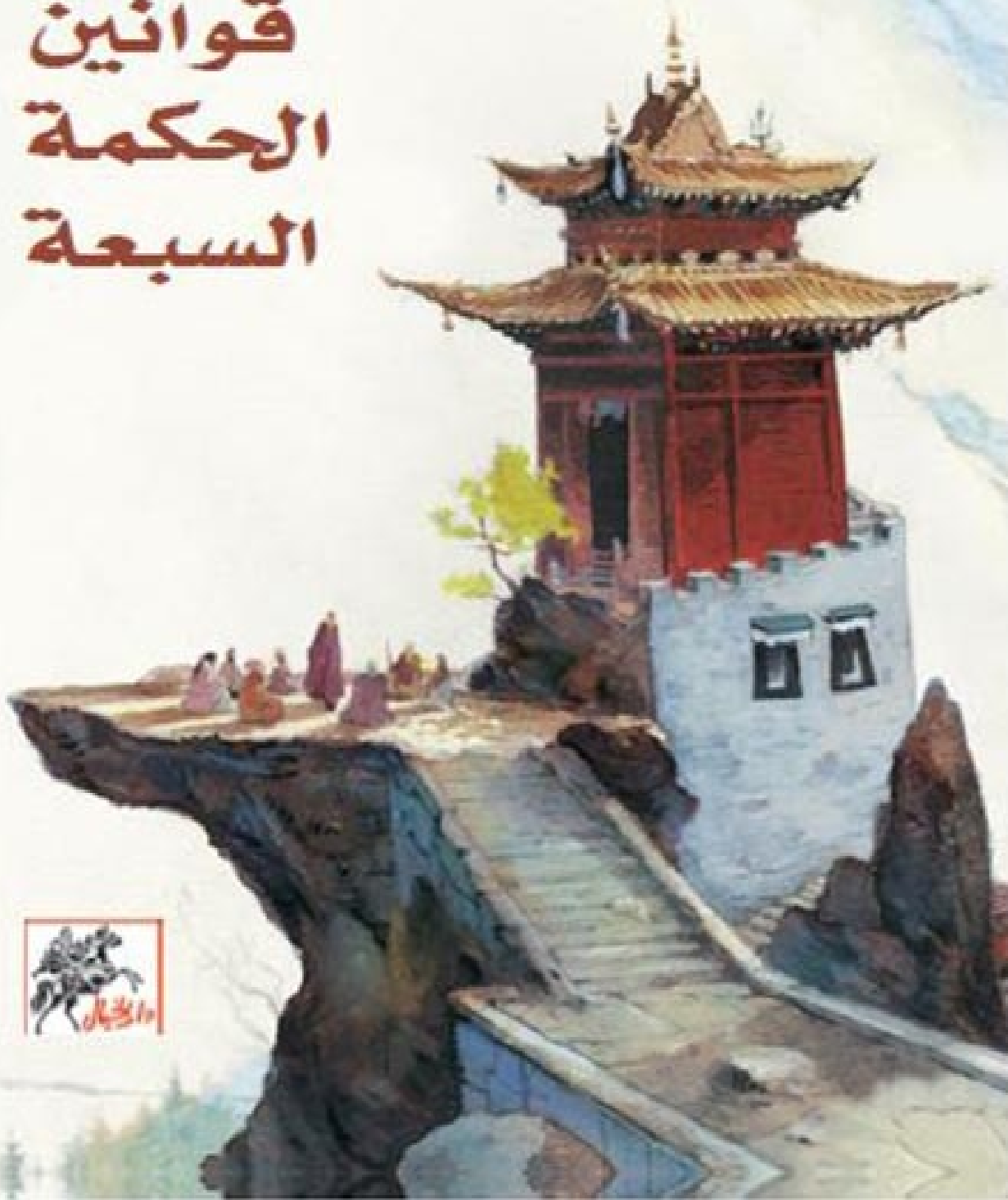


فريدريك لوفنوار

روح العالم

قوانين
الحكمة
السبعة



روح العالم

L`Âme du monde

روح العالم
فريدريك لونوار

L`Âme du monde

Copyright © 2012 by Frédéric Lenoir and Pocket

حقوق الترجمة العربية محفوظة للناشر ©

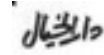


بناية يعقوبيان بلوك B طابق 3 شارع الكويت
المنارة بيروت

لبنان تلفاكس: 009611740110

Email: alkhayal@inco.com.lb

www.darelkhayal.com



التنفيذ الفني:

الطبعة الأولى 2016

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب فـدي أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الألكترونية أم الميكانيكية؛ بما فـدي ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

فريدريك لوناوار

روح الع-الم
قوانين الحكمة السبعة

ترجمة: جوزف كالوستيان



«إن أروع وأعمق اختبار بوسع الإنسان أن
يجريه هو اختبار لغز محير».

(ألبرت آينشتاين)

الجزء الأول
عند سفح الجبل الأبيض

1

الرحيل

وقعت هذه الأحداث الغريبة في غضون ساعات قليلة.

كان الحاخام سالومون جالساً في المطبخ، عندما سمع صوتاً يهمس في أذنه: «إذهب إلى تولنكا». نادى زوجته راحيل فلم تسمع شيئاً. ظناً منه أنه رأى حلمًا، غير أن الصوت ما لبث أن تردد: «إذهب إلى تولنكا ولا تتأخر» هنا قال في نفسه لعلّ الله كلمني. ولكن لماذا هو بالذات؟ الحاخام شلومو، كما اعتاد الناس أن يدعوه، رجلٌ كثير المزاح، منفتح الذهن، ينتمي إلى التيار اليهودي المتحرر. غادر نيويورك لأربعين سنة خلت، وقدم للعيش في القدس. كان يدرس ويعلم بشغف القبالة، أي التيار الصوفي اليهودي، يعلمها لحفنة من الطلاب اليهود وغير اليهود. طلب من حفيده بنيامين أن يتطلع في الحاسوب أين تقع تولنكا. أجاب الشاب: «إنه دير بوذي في التيبِت». تملكك الدهشة عالم القبالة فتساءل: لماذا يريد الله أن يرسله إلى التيبِت وقد ناهز الثانية والثمانين من العمر؟».

لم تتمكن «أنسيا» أن تخلد للنوم. فخرجت من خيمتها وراحت تتأمل فضاء السماء اللامتناهي، كما أحببت سعة سهوب منغوليا التي طالما عاشت في رحابها. ملأت صدرها بالهواء النقي وبلغت الخيمة التي تنقاسمها مع خالتها، وهي امرأة «شامانية» على تواصل مع الأرواح. اكتشفت هذه المرأة العجوز قبل بضعة أعوام موهبة ابنة أختها ولقنتها العلوم والأسرار، فأخذ الناس ينقاطرون كل يوم تقريباً لاستشارة المرأتين ولما كانت الفتاة رائعة الجمال وما زالت عذباء، اختلق بعض الرجال أمراضاً وهمية لمجرد الرغبة في مشاهدتها. كانت أنسيا حينذاك تغادر الخيمة لتعنى بالحيوانات، وتترك الرجال مخيبي الآمال مع خالتها العجوز شبه العمياء. كما كانت، إذا واجهت مرضى حقيقيين تفرع الطبل وتستحضر الأرواح، بغية تحرير الأجساد والنفوس. فنبأشر الرقص حتى درجة العشيان. وشعرت هذا اليوم أنها منهكة من جراء رؤيا غريبة. إذ بينما كانت تعالج أماً شابة، ظهرت لها روح مضيئة وأعلمتها بحركة منها بضرورة الرحيل. وإذ لم تفهم أنسيا مغزى الرسالة، باحت بسرّها لخالتها التي أثرت الصمت. ولكنها حين التحقت بخيمتها في منتصف الليل، قالت لها خالتها وهي جالسة فوق السرير: «رأيت في المنام المكان الذي يتعين عليك أن تذهبي. إنه دير تيبتي على الحدود بين الصين والهند. انطلق مع بزوغ الفجر».

رأى الأب «بيدرو»، على بعد آلاف الكيلومترات، حلمًا أيضاً. إنه راهب كاثوليكي، برازيلي

الأصل، من مدينة ريو دي باهيا، يعيش منذ أكثر من خمس وعشرين سنة في ولاية أوريجون الأميركية. لقد ترك دير «اللاترابي» ملتحقاً بصومعة وضيعة في قلب الغابة، حيث اعتزم أن يُنهي حياته نهاية سعيدة مستغرقاً في الصلاة والتأمل. ها هو قد رأى أيضاً في منامه فتاة صغيرة تأمره بالذهاب من دون إبطاء إلى ذلك الدير التيبتي في المقلب الآخر من العالم. كان قلبه البرازيلي يصدق حقيقة الأحلام وطبيعة الوجود السحرية إلى حد ما. غادر كوخه وقد تملكه الفضول، متوجهاً إلى الصين.

كانت «مآندنا» المتصوفة الهندية تدير منسكاً صغيراً في شمال الهند. اعتبرت هذه المرأة الطاعنة في السن «مخلصة حية»، وقديسة كبيرة منذ نعومة أظفارها. لم تتوقف منذ ذلك الحين عن التعليم، هي التي ما سعت يوماً وراء العلم. سافرت في الصباح الباكر دون أن تلتفت إلى تلاميذها الذين حزنوا حين شاهدوها ترحل لزمان ومكان مجهولين، لم تأتِ على ذكرهما لأي من الناس.

أما «المعلم كونغ» فاطلع زوجته على ما انتابه من أمور. كان هذا الحكيم الصيني العجوز يقيم مع عياله غير بعيد من مدينة شنغهاي. وهو مسؤول عن معبد «طاوي» صغير، ويعيش حياة تقشف تام، ويمضي معظم أوقات النهار جالساً على الأرض فوق وسادة، يعلم حفنة من التلاميذ، بعضهم غربيون، أركان الحكمة الصينية. وقد اكتشف في وقت متأخر شغفاً مفاجئاً بالتكنولوجيا، من غير أن يعلم أحد سبب ذلك تماماً. كان يملك حاسوباً محمولاً وهاتفاً إلكترونياً، ولمناسبة بلوغه الخامسة والسبعين أهدى إليه طلابه جهازاً من أحدث طراز لتحديد الموقع يستعملها مرة أو اثنتين في الأسبوع عند توجهه إلى القرية المجاورة، مع أنه يعرف الطريق المؤدية إليها عن ظهر قلب. ذات صباح لاحظ بدهشة، حين أشعل جهازه المحدد للموقع أن خط طول وخط عرض ارتسما على شاشته. تأكد من الأحداثيات مكتشفاً نقطة في التيب. وإذ تحقق من أن أحداً لم يستعمل جهازه على غير علم منه، استطلع آل «يي كينغ»، كتاب النبوءات، فأجابه: «حسناً أن تذهب» عندئذ عانق، دونما تردد، زوجته وأولاده وأحفاده وسلك الطريق إلى التيب.

إلا أن السفر كان أشد مدعاة للعناء بالنسبة إلى الشيخ يوسف، مؤسس جمعية إسلامية صوفية في نيجيريا. لقد جمد هذا العملاق عندما شاهد الأحرف ت، و، ل، ن، ك، ا تلمع ببريق غريب على الصفحة الأولى من الكتاب الذي يهم بقراءته. وفي اللحظة عينها، قلبت الريح صفحات قرآنه على سورة الإسراء. شقَّ على الشيخ يوسف مفارقة أفراد عائلته، ولا سيما أن زوجته أنجبت للتو له ليلي الوليدة الخامسة بين إخوتها، ومع أن القوة التي دفعته للرحيل كانت عظيمة جداً، لم يدر أي طريق يسلك، بيد أن القدر كان دليلاً، فانطلق مستعيناً بالعلامات واللقاءات المهيأة له.

في حين كانت غابرييلا، الفيلسوفة الهولندية، أكثرهم تردداً. إنها أستاذة الفلسفة اليونانية في جامعة أمستردام، وتلميذة متحمسة للحكام الرواقيين ولسبينوزا، أشهر من عاش في أمستردام. كانت الحكمة عند هذه المرأة الأربعينية علمانية الطابع، مسألة مزيج من العقل والحدس، ولا بد أن تساعد الحكمة قبل كل شيء على العيش. وكانت منتمة منذ سنوات إلى محفل ماسوني نسائي، حيث انكبت

بحماس على دراسة الرموز. قامت في منتصف الليل، وقد جافاها النوم، وأشعلت التلفزيون. صادفت بث برنامج عن البوذية التيبية. ولما جرى ذكر دير تولنكا، شعرت برغبة تجتاحها من قمة رأسها إلى قدميها. لم تدر سبب تسلط فكرة عليها قوامها وجوب المغادرة فوراً إلى ذلك الدير. تناولت حبة منومة محاولة نسيان الهاجس المتسلط عليها. ولكنها حين صادفت في الغد سيدة تزرق في كلبها قائلة: «تولنكا، هيا تقدمي»، تلاشت شكوكها. تناولت هاتفها وطلبت من زوجها السابق أن يعتني بابنتهما ناتينا لبضعة أسابيع. غير أن هذا الأخير ردّ بالرفض لأنه كان سيشترك في مؤتمر يعقد خارج البلاد. عندها توصلت الفتاة إلى أمها، وكانت قد سمعت الحديث الهاتفي أن تصطحبها معها إلى التيب. كانت العطلة المدرسية الصيفية في بدايتها، ولم تكن مضطرة للقيام بأي عمل لأكثر من ستة أسابيع. كانت ناتينا، المراهقة ذات الإرادة القوية والمتشوقة إلى الاطلاع على كل شيء، والتي ستبلغ عما قريب الرابعة عشرة، تحلم بالأسفار البعيدة. بدأت غابرييلا بالرفض مفتشة عن حلول أخرى. ولكن الغريب في الأمر أن جميع المسارات كان مصيرها الفشل، الواحد تلو الآخر. حينها استتجت الفيلسوفة بهدوء أن القدر قد قرر هكذا. فوثبت ناتينا إلى عنق أمها قائلة: «إذاً، أحقاً نحن ذاهبتان إلى التيب؟».

كان دير تولنكا، الجاثم على كتف صخرة بارتفاع أربعة آلاف متر والمتكىء على سفح جبل مغطى كله بالثلج، يتعذر الوصول إليه بالسيارة. وكان على بعد قرابة خمسة عشر كيلومتراً منه قرية صغيرة، لا يوجد فيها سوى فندق واحد قبالة المحطة. هنالك تمّ اللقاء بين الحاخام شلومو، والشامانة أنسيا، والأب بيدرو، وماآنداء، والمعلم كينغ، والشيخ يوسف، وغبرييلا مع ابنتها ناتينا، قبل أقل من أسبوع على وقوع الأحداث.

ولما كانوا الغرباء الوحيدة المقيمين في الفندق، تعارفوا بعضهم إلى بعض تواً. وكونهم يتكلمون الإنكليزية يسر لهم تبادل الآراء. وتملكتهم الدهشة حين لاحظوا أنهم جميعاً جرت دعوتهم بطريقة مبهمة للغاية.

ماذا يصنعون ههنا؟ ليس لدى أي منهم الجواب الشافي. ولكن الطريقة الغريبة التي بواسطتها تم «الاتصال» بهم، واعتبارهم ممثلين للتقاليد الفلسفية والروحية الرئيسة للبشرية، بدا يشير إلى أن القدر جمعهم لسبب دقيق جداً. ولكن ما هو هذا السبب؟

عندئذ التحق بهم كاهن تيبتي من تولنكا. كان الكاهن البوذي «دورجه» برفقة كاهنين أصغر سناً منه، يمسك كل منهما بحصان. إستمع إلى حكاياتهم بجدية وحرصاً، واقترح عليهم تحميل الأمتعة على متن الحصانين للتوجه إلى الدير.

سأل الحاخام شلومو أمام أنظار الجميع الدالة على الاستحسان: «نريد أن نتبعك، يا صاحبي، ولكن قل لنا على الأقل لماذا نحن مجتمعون ههنا؟».

إرتسمت إبتسامة على وجه الكاهن البوذي العجوز: «لقد حلمت أنا كذلك قبل ثلاثة أيام أن عليّ البحث في القرية عن سبعة غرباء، أربعة رجال وثلاث نساء وكذلك عن فتاة شقراء، لأقودهم إلى الدير لأبي سبب؟ أجهله مثلما تجهلونه أنتم أيضاً!».

3

تنزين

استغرق المسير حتى تولنكا ثلاثة أيام وليلتين، نظراً لكبير سن العديد من الحكماء وتعبهم. كان السائرون يتعاونون في الممرات الصعبة من الدرب الشديد الانحدار. في مساء اليوم الثالث، لاح لهم الدير أخيراً. فأنساهم جمال المشهد عناء السفر وتأثير الارتفاع السيء الذي غلب بعضاً منهم. كان عشرون كاهناً تيبتيّاً يعيشون في المكان بأمرة كاهنٍ صغير في الثانية عشرة من عمره، يدعى «بيما رينبوشه».

وفق التقاليد التيبتيّة، تم الإعراف به وهو لا يزال طفلاً كتجسيد لمعلم روعي كبير، هو الكاهن توكن رينبوشه، الرئيس السابق لهذا الدير. وعُيّن الكاهن دورجه، أقرب التلاميذ للكاهن توكن، وصياً على تجسده الجديد. وكان الكاهن توكن قد طلب، قبل وفاته، أن يُهيّء خلفه بجعله يقتبس من الحضارتين التيبتيّة والغربيّة. ثم ترك إشارات رمزية على مكان ولادته الجديدة القادمة. اهتدى الكاهن البوذي، بعد ثلاثة أعوام على وفاة معلمه، إلى تجسده باتباع تعليماته. إذ نبتت أزهارٌ في عزّ الشتاء أمام نافذة البيت الوضيع، حيث ولد الطفل الذي أثار فضول والديه الفلاحين البسيطين. كان الطفل في عامه الثاني عندما زار الراهب دورجه أسرته للمرة الأولى، فارتدى ثياب خادم ومثّل راهب آخر دور الكاهن البوذي. إلا أن الطفل لم يهتم إطلاقاً بالراهبين، إنما تقدّم من الراهب العجوز المتنكر في زي خادم، وقال له والابتسامّة تملو شفّتيه: «يا كاهن تولنكا، يا كاهن تولنكا» ثم وضع يده على سُبحة الصلاة التي يحملها الكاهن حول عنقه، وكانت مُلكاً لرئيس الدير السابق، وصاح بملء حنجرته: «إليّ بها، إليّ بها!» بكى الكاهن دورجه فرحاً وأتى بالطفل وأسرته إلى الدير. إحتفظ باسمه تنزين، إنما أضيف إليه اسم بيما ولقب رينبوشه، ومعناهما «ثمين جداً». وبعد بضعة أسابيع قضتها الأسرة في الدير، عادت أدرأجها مُخلفةً الطفل لعناية الرهبان. فاستدعى هؤلاء كاهناً تيبتيّاً عاش في كندا لتلقينه اللغة الإنكليزية وأركان الحضارة الغربيّة. لم يُرسم الطفل، تبعاً لتعليمات سلفه، كاهناً بل أبرز نور علماني بسيط. وسوف يخير، لدى بلوغه سن الرشد، بين حياة علمانية أو رهبانية، وبانتظار ذلك شاطر الرهبان حياتهم مرتدياً ثوبهم الأحمر والأصفر.

منذ الأمسية الأولى، اجتمعوا في شرفة الدير بحضور الطفل. تحدث تنزين بثقة ورباطة جأش أدهشتنا ضيوفه. قال: «أرى أن القدر حشد هنا، بطرق عجيبة، ثمانية حكماء يمثلون التيارات الروحية

الرئيسة في العالم: امرأة شامانية، فيلسوفة أوروبية، متصوفة هندية، معلم طاوي صيني، حاخام قبالي، راهب مسيحي، ومعلم صوفي مسلم، دون إغفال كاهن بوذي بالطبع في شخص الكاهن دورجه. توقف الكاهن الفتى برهة موجهاً أنظاره نحو ناتينا التي كانت تراقبه بعينيها البالغتي الزرقة «يسرني أن ترافقكم فتاة ذات شعر ببريق الشمس وناظرين بلون السماء. ما من شك في أنها، بالرغم من صغر سنها، تنعم بموهبة حكمة عميقة» اصطبغ مَحيا ناتينا اللطيف بالحرمة. فهش تنزين واستأنف مجرى أفكاره «لقد جنتم جميعاً بملء إرادتكم، منقادين للإيحاءات التي تلقّتها قلوبكم، دون أن تعلموا شيئاً عن هدف هذه الرحلة التي قلبت حياتكم رأساً على عقب. سوف نبذل غاية جهدنا لجعل إقامتكم أشد إمتاعاً قدر المستطاع، حتى ولو كان دبرنا فقيراً ومنعزلاً».

بعد فترة صمت، تحدث الأب بيدرو: «نحن كلنا ممتنون لحرارة استقبالكم، أيها الكاهن تنزين. لن تضايقنا بالتأكيد ببساطة المكان، بل على العكس تماماً. إنما السؤال الوحيد الذي يلهب شفاهنا هو ببساطة أن نعرف لمَ نحن مجتمعون ههنا ولكم من الوقت» دمدمة رضى سرت في صفوف جماعة الحكماء.

«لست أدري أكثر من الكاهن دورجه. لم أر أنا بنفسني أي منام ولا سمعت صوتاً ما...».

قالت أنيسيا الشامانية بصوت عذب: «نحن لسنا قلقين. فالقوة التي أتت بنا إلى هذا المكان سوف تطلعنا على ما ينبغي أن نفعله».

أقرت ماأنندا قائلة: «إذا كانت الإقامة هنا سوف تستغرق بعض الوقت، فإني أود الحصول على أخبار عن أسرتي. هل من وسيلة للتواصل مع الخارج؟».

أجاب الكاهن دورجه: «للأسف، لا تتوفر أية وسيلة! فليس لدينا هاتف ولا انترنت. فالدير غارق في عزلته ونحن لم نشعر يوماً بالحاجة إليهما. أمل أن تكونوا قد أبلغتم أقرباءكم أن غيابكم قد يطول...».

تابعت غابرييلا تقول: «بالتأكيد. ولكن أولئك الذين لهم عائلة، لا ينبغي أن تكون مدة إقامتهم طويلة جداً».

ردّ المعلم كونغ بابتسامة لاهية: «لا تقلقوا! فأنا لا أتحرك أبداً من دون هاتفي الإلكتروني وحاسوبي المحمول...».

رمقت غابرييلا بذهول الرجل العجوز الذي بدا أنه قادم من عصر مختلف. ثم استغرقت في ضحكة عريضة معدية.

واصل تنزين بنبرة مرحة: «لما كانت مسائل التواصل مع الخارج قد حلت، أقترح عليكم التوجه لتذوق ال- «تسامبا» وهو طحيننا الشهير المصنوع من الشعير المحمص». فوافق الجميع بفرح غامر. لم يكن بميسور أي منهم أن يتخيل بُعد ما قد يحدث.

نبع، فيل وجبل

انقضت الأيام الأولى بحالة نفسية مرحة، إذ شعر الحكماء الثمانية بالسرور وهم يتبادلون الآراء ويتعرفون إلى بعضهم. كان كلُّ واحدٍ منهم على معرفة تامة بتقاليده الخاصة. لكن أياً منهم لم يصرف ما يلزمه من الوقت لدراسة التيارات الروحية الأخرى المنتشرة في العالم. وهكذا انتابهم الدهول عندما لاحظوا أن ثمة، وراء الخلافات النظرية الحادة، العديد من النقاط المشتركة في طريقة اختبارهم الروحانية.

أشارت ماآنندا أثناء تناول وجبة مشتركة في شرفة الدير، قائلة: «نحن نشاطر خبرة روحية بالغة الشبه، حتى ولو اختلفت لغة تقاليدنا في التعبير عنها». أجاب الأب بيدرو بلهجة لاهية: «أجل، لديّ انطباع أن جميع الباحثين عن الروحانية في العالم ينهلون من منبع واحد، هو منبع الحياة والحب. أننا نحاول كل يوم، من خلال تأملاتنا وصلواتنا، وعبر انفتاح قلوبنا وعقولنا أن نتذوق طعم ماء الحكمة الأبدية. والفرح العميق الذي نشعر به غالباً ما يجعلنا نستغرق في صمت التأمل».

وقال الحاخام شلومو بابتسامة خفيفة خبيثة:

«إننا في هذا المجال بعيدون كل البعد عن معظم حرّاس العقيدة في جميع الديانات. فهم الذين يقفون على مسافة بعيدة من هذا النبع، ويتخاصمون إلى ما لا نهاية في شأن معرفة ما إذا كان الماء-الذي لم يشربوا منه قط- حاراً أو بارداً، مالحاً أو عذباً، فائراً أو ساكناً، معدنياً أو جيريا!». «

قهقهه جُلّاس المائدة، وقال الشيخ يوسف لسائر الضيوف: «أتعرفون حكاية الفيل؟».

وافقت ما آنندا والكاهن دورجه بابتسامة محرّضة، أما المعلم كونغ فأعلن: «أما نحن فلا نعرفها!». «

إليك الحكاية: حشد أحد الملوك، ذات يوم، جماعة من العميان منذ الولادة، قائلاً لهم: «هل تعرفون الفيلة؟» أجابوا: «أيها الملك العظيم، نحن لا نعرفها ولا ندري بما يتعلق الأمر» قال لهم الملك أيضاً: «هلاً ترغبون في معرفة شكلها؟» أجاب العميان معاً: «نرغب في معرفتها». للحال أمر الملك عبده بالإتيان بفيل، وطلب من العميان لمس الحيوان. تحسس بعضهم الفيل لأمسين الخرطوم، فقال الملك لهم: «هذا هو الفيل». ولمس آخرون إما أذنأ أو النابين أو الرأس أو الخاصرة أو الفخذ أو الذنب.

قال لهم الملك جميعاً: «هذا هو الفيل» ثم سأل الملك العميان: «ما هو شكل الفيل؟» قال الأعمى الذي لمس الخرطوم: «إنه شبيه بنبته عارشة ضخمة». وقال الذي لمس الأذن: «الفيل شبيه بورقة شجرة الموز». وقال الذي لمس إحدى النابيين: «الفيل شبيه بمدقة هاون كبير». وقال الذي لمس الخصرة: «الفيل شبيه بحائط». أما الذي لمس الفخذ فقال: «الفيل أشبه بشجرة». أما الذي لمس الذنب فقال: «الفيل أشبه بحبل». وراح بعضهم يتهم بعضاً أنهم أخطأوا وأن نقاشهم ازداد احتداماً. لم يتمالك الملك عن الضحك، ثم ألقى هذه الكلمة: «إن جسم الفيل وحيد الشكل، إنما الإدراك الحسي المختلف لكل جزءٍ من أجزائه هو الذي أدى إلى وقوع هذه الأخطاء»، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أنصار العقائد الدينية المختلفة. هذا ما خلص إليه الصوفي. كلُّ يتحدث عن الله، عن الإلهي أو عن «المطلق» بحسب إدراكه الحسيّ المحدود. ولا تستطيع أية ديانة أن تدعي أنها تملك كل الحقيقة. كأنما هذه الحقيقة تشظت لدى ظهورها في العالم.

أفرَّ الحاخام شلومو قائلاً: «هذا ما نؤكد في التقليد القبالي بنظرية «تسيمتسوم». قبل نشوء العالم، كان الله يملأ كُلَّ الفضاء، وحين خلق الكون، سحب تعالى نوره تدريجياً لكي يتلاءم مع قدرة تلقي مخلوقاته. ال- «تسيمتسوم» هو نوعاً ما، كتمان النور الإلهي منذ ذلك الحين، وباستطاعة كل عالم وكل تقليد وكل فرد أن يبلغ ذلك، ولكن كلاً بحسب قدرة ووسائل خاصة به. على هذا النحو، يتجلى النور الإلهي تدريجياً لجميع الكائنات في كل العوالم. وليس بميسور أحد أن يؤكد: «أنا أملك كل الوحي» بل بالعكس، كل واحد منا بحاجة إلى الآخرين ليمضي قدماً في إدراك كشف «النور الإلهي».

أردفت ماآنندا قائلة: «أجل، كل ديانة تملك طريقة فذة وفريدة في فهم الحقيقة الكلية» ثم رفعت عينيها نحو القمم المحيطة بالدير وقالت: «إنها على غرار هذه الجبال، لكل واحد منها قمة يمكن تسلقها. ولكن ما الجدوى من مقارنتها؟ كل قمة جميلة وكل درب غني بالعبير. كل درب تتعرضه عقبات لا بد من تجاوزها وتسمح بكشف مشاهد رائعة. ليس مُهمّاً تسلق هذا الجبل أو ذاك، إنما المهم هو اجتياز الطريق، اجتيازه بانتباه ومثابرة، وبقلب منفتح وعقل حذر. إذ ليس اسم القمة التي تسلقناها هو الذي يُحوّلنا، بل الحضور والمحبة اللذان نضيفهما على المسيرة. أن العالم جميلٌ بتنوع مشاهدته، والحياة الروحية جميلة بكثرة دروبها».

هياج الحب

مرت الأيام. وبعد اللحظات الأولى من النقاش والتقاسم أحس الحكماء بحاجة إلى مزيد من الانزواء للصلاة والتأمل، فخيم جوٌّ من الصمت والخشوع، تخلله رنين أجراس يعلن عن بدء الصلوات والأدعية، أو ضحك المبتدئين الشبان.

لقد اعتاد تنزين وناطينا التعرف إلى بعضهما. كان الفتى، بالرغم من أنه يصغر الفتاة المراهقة ثمانية عشر شهراً، ذا قامة شبيهة بقامتها، وسواد شعر وعينين يتقاطع بشكل مؤثر مع النور الذي يشع من جسم ناطينا. كانت هذه الأخيرة تحت سطوة معارف الفتى الروحية العميقة، كما كان هو مفتوناً بثقافة الفتاة الغربية الانتقائية، المتمرس في الانتقال على الانترنت. طالبت ناطينا منذ اليوم الثالث إلى الكاهن التيبتي أن يساعدها على اكتشاف جوار الدير. ومنذ ذلك الوقت، تعوداً أن يسيرا معاً لساعات طويلة بعد وجبة الصباح. فكانا يهبطان من المنحدر الصخري ويتزهران على الهضبة، وسط حقول الشعير.

وذات يوم، أمسكت الفتاة الهولندية بيد الفتى التيبتي دافعة إياه إلى إجراء سباق تخللته قهقهات صاحبة. فاضطرب تنزين لذلك اضطراباً شديداً، إذ كانت المرة الأولى، منذ نعومة أظفاره، يلمس يد امرأة. وحين أسندت ناطينا رأسها على صدر الكاهن الفتى لاستعادة أنفاسها، تمت له: «ما أقوى خفقات قلبك!». أجاب تنزين مرتبكاً: «ذلك لأننا ركضنا طويلاً». تناولت ناطينا يد الفتى ووضعتها على صدرها. «كلا، أنظر، قلبي يخفق بوتيرة أبطأ».

أوقعت حركة ناطينا تنزين في حرج شديد بالرغم من براءتها. فسحب يده ومضى بصديقه نحو الدير.

لزم الصمت طوال المسير. وشق عليه، وللمرة الأولى في حياته، أن يُركِّز تفكيره أثناء ممارسة الطقس الديني، ولم يقرب طعام العشاء. وفي المساء، قرع باب الكاهن العجوز دورجه وباح له باضطرابه. اعتصم هذا بالصمت لحظة، ثم افتر ثغره عن ابتسامة عريضة: «لعلك عاشق، يا بُني!» طأطأ تنزين رأسه، بينما واصل الكاهن التيبتي حديثه: «ليس في الأمر ما يضر، إنما أنت ما زلت صغيراً بعض الشيء، وقد لا يتلاءم ذلك مع مصيرك. من الحكمة ألا تلتقي صديقتك وجهاً لوجه إلا أقل ما يمكن. ثم إليك فرصة سانحة لتضع موضع التنفيذ تمريناً يتعلق بتأمل عملية تحوّل الانفعالات.

هكذا ستتعلم ألا يفلتك ويلهيك هذا الحب، بل أن تركز على هذا الإحساس النبيل. عندئذ سيسمو بقلبك بدل أن يسبب لك اضطراباً».

روت ناتينا أيضاً الحادث لأمها. فشرحت لها غابرييلا أن عليها أن تكون أشد تحفظاً تجاه تنزين، غير المعتاد على معاشره الفتيات.

رفض المراهقان القيام بنزهاتهما خارج الدير، ولكنهما استمرا في تبادل الآراء كل يوم بشأن العديد من مظاهر عالمهما اليومية. ولم يكفا عن الدهشة والحماس للفروق القائمة بينهما. فتقوى قلب تنزين وسرعان ما أخلى اضطراب الهيجانات الأولى المكان لعاطفة عميقة تجاه ناتينا. كانت هذه العاطفة متبادلة تماماً. واقسم المراهقان أن يتراسلا غالباً لدى رحيل ناتينا. ولكن متى سيتم ذلك؟

شارك بعض الحكماء الرهبان في طقوس صلواتهم اليومية، فيما فضل آخرون ممارسة طقوسهم الدينية الخاصة على انفراد. غير أن الجميع تلاقوا لتناول وجبة المساء، ثلثها فترة من التأمل الصامت المشترك. «إننا لا نصلي معاً، ولكننا مجتمعون معاً في الصلاة». هذا ما حرص على تبيانه الأب بيدرو منذ المساء الأول. وأصبحت لحظة الصلاة هذه، على مر الأيام، أكثر كثافة وطولاً وكذلك أكثر ثقلاً. بدأ الانتظار يضايق معظم الحكماء، إذ أن كلاً منهم فارق عائلته بقسوة، وفارق أيضاً أصدقاءه وتلاميذه ومشاريعه وأبحاثه منقاداً لهذا الوحي الداخلي الغريب. سبعة عشر يوماً انقضت على وصولهم إلى الدير.

حدث خارجي وحيد عكر صفو المكان، هو فرار الحيوانات البرية. في أحد الأيام، سمع الرهبان رجة صماء: كانت كل الأرويات (حيوانات من قسم الضأنيات وفصيولة الغنميات) قد هربت إلى الهضبة مثيرة سحابة من الغبار من دون سبب ظاهر.

لم يقع شيء آخر غير هذا الحدث. وكان صبر الحكماء تعرض لمحنة قاسية. فكانوا، كل صباح، ينظر الواحد منهم إلى الآخر بصمت أثناء الوجبة الأولى، مترصداً في نظره أثر حلم أو حدس ليلي قد يضيء على معنى لقائهم. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. وكانت غابرييلا أكثرهم قلقاً، فهي لا تستطيع التكبير في تضييع بدء السنة الدراسية على ابنتها. كما أنها هي التي قررت تعجيل تدافع الأحداث.

في إحدى الأمسيات، أعلنت للحكماء، عقب التأمل المشترك، عن نيتها بمغادرة تولنكا. بعد زوال لحظة الذهول الأولى، تحدث كل منهم ووافقوا على قرار الفيلسوفة، إذ ما كان لهذا الانتظار أن يطول كثيراً. فاتخذوا بموافقة الجميع قرار الرحيل غداة اليوم التالي.

خلال هذه الليلة الأخيرة، انقلب كل شيء رأساً على عقب.

وصل الحاخام شلومو الأخير إلى مائدة الإفطار. كانت هيئته تتم عن التعب، وبدا أنه فريسة الهموم. سألته غابرييلا عما يشغل باله. فتمتم الحاخام العجوز: «رأيت مناماً رهيباً. رأيت مدينة أورشليم دمرها زلزال. وأخيراً لم يبق فيها حجر على حجر، بل كانت حقلاً فسيحاً من الأطلال، وما عدت أطبق عيني طوال الليل!». «

لأذ الحكماء السبعة الآخرون بالصمت. كانت الدهشة مرتسمة في أعينهم. حينئذ تكلم الشيخ يوسف قال: «أنا كذلك حلمت الحلم نفسه، لكنها كانت مدينة مكة هي المهدمة كلياً».

وقالت ماآنندا بدورها: «وأنا رأيت مدينة بينارس مغمورة بالمياه».

وأردف المعلم كونغ قائلاً: «كان طوفان مياه يغمر معبدي الطاوي، ويجرف كل شيء في دقائق قليلة».

وقالت آنسيا الشامانية بدورها: «رأيت سهول منغوليا الكبرى تلتهمها النيران».

أما الأب بيدرو فأردف يقول، وقد خنق النفعال صوته: «في حلمي أنا، كانت بازيليك القديس بطرس في روما تحترق وتتهار».

ثم قالت غابرييلا: «وأنا، جامعة أمستردام».

وختم الكاهن البوذي دورجه الكلام بقوله: «وأنا، هذا الدير!».

بعد بُرهة صمت، واصل الأب بيدرو الحديث: «شاهدنا جميعاً في الحلم تدمير أماكن دياناتنا المقدسة. من المذهل أننا رأينا هذا الحلم في الليلة ذاتها!».

ولاحظت آنسيا: وذلك عشية رحيلنا، كأن القدر بعث إلينا برسالة جديدة لنبقى...

تابع الصوفي: «هذه الرسالة على قدر كبير من الوضوح، كارثة ما ستضرب الأرض، وقسمٌ كبير من البشر مهددٌ بالزوال».

ردَّ الأب بيدرو بعد لحظة من التفكير ملياً: «لا أشاطر بالضرورة هذا التفسير. فالأماكن التي

شاهدناها عرضة للخراب والدمار تمثل ديانات العالم، فهي المقصودة بذلك وليست البشرية. ربما سنشهد نهاية عالم مبني على التقاليد الدينية الكبرى، وبرز عصر جديد منقطع عن هذه الجذور الميتافيزيقية».

أبدت غابرييلا رأيها: «هذا في الواقع بعض ما نلاحظه. العالم الحديث فاقد الذاكرة، أقله في أوروبا، أنه ينكر ماضيه الديني. وما يجري في أوروبا سوف يبلغ العالم بأسره خلال أجل محدود». صوّب الحاخام شلومو قائلاً: «لن يكون ذلك بين عشية وضحاها. وليس من المؤكد إطلاقاً: تأملوا كل حالات الارتداد إلى الدين التي نشاهدها! أعتقد، مثل الشيخ يوسف، أننا سنتعرض على الأرجح لكارثة أرضية مفاجئة، وأن الله جمعنا هنا لنترك رسالة مشتركة للبشرية القادمة». بدا الأب بيدرو ضحية الشك: «ماذا تقصد أن تقول؟».

- لماذا جشّم القدر نفسه- لا تهم التسمية المعطاة له- عناء حشدنا في المكان عينه، ثم بين لنا أن كارثة سوف تقع، إن لم يكن لنتفق معاً على تعليم ما إنها رسالة يمكننا كتابتها وتركها للذين سيبقون على قيد الحياة.

أضافت ما أنندا: «إني اشاطر وجهة النظر هذه. ولا بأس إن وقعت كارثة أم لم تقع. فأن تختفي معابدنا حقاً، أو أن ترمز إلى دياناتنا المأزومة، ليس هذا بالأمر الأساسي، إن أحلامنا تعني أن صفحة من تاريخ العالم على وشك أن تقلب، وأن علينا بالفعل تجاوز خلافاتنا لنحاول صوغ أركان الحكمة الشاملة معاً».

وكانت فترة جديدة من الصمت. بدا كل واحد مستغرقاً في تأمل عميق. حينئذ تكلم الكاهن دورجه: «حسناً، لنتصور أن الأمر متعلق بذلك. سؤالان مهمان يطرحان نفسيهما. السؤال الأول: ماذا نقول في هذا الصدد؟ والثاني: على أي أساس نقول؟».

علّق الحاخام شلومو ساخراً: «من الأسهل الإجابة عن السؤال الثاني منها عن السؤال الأول. ما من شك أن لديك ورقاً وأقلاماً. يكفي أن نكتب!».

إعترضت أنسيا قائلة: «لست متأكدة من ذلك. إذا كنا نشهد كارثة حقيقية، وإذا كان هذا الدير معرضاً للإصابة، فماذا سيبقى من الأوراق المخربشة؟».

قال المعلم كونغ: «إنها على صواب. يجب حفر هذه الرسالة على الخشب أو بالاحرى على الحجر كي تقاوم الحريق أو الزلزال».

ردّ الحاخام: «لست أنا، أحد أتباع موسى، الذي تسلم الشريعة الإلهية منحوتة على لوحى حجر، لأناقضك! ولكن لا وجود لنحات في هذا الدير، على ما أتصور».

هزّ الكاهن دورجه رأسه بإيماءة سلبية.

هتفت غابرييلا: «لا أرى كيف يمكننا، على كل حال، إيجاز أركان الحكمة في جمل قليلة. من الجائز التعبير عن الأحكام الأخلاقية بكلمات قليلة، ولكن قوانين الحياة الروحية تقتضي حداً أدنى من الشروح».

ثم أردف الأب بيدرو: «هذا ولا تلزم كلمتنا سوانا. فمن نكون نحن لنحفر على الحجر مفهومنا الضئيل للحكمة؟!».

وافق الجميع بجلبة وصخب. وخطر للمرأة الشامانية من طريق الحدس خاطرٌ مباغت، بينما التفتت أنسيا صوب الفتى والفتاة اللذين لاذا بالصمت منذ بدء المناقشة.

«وأنتما هل رأيتما مناماً؟».

تحولت الأنظار تجاه المراهقين.

أجابا في وقت واحد تقريباً: «نعم!».

تابعت ناتينا تقول: «أنا حلمت بأني ساقية صغيرة. وهذه الساقية ترويها ثمانية أنهار. عندها أصبحت نهراً كبيراً، وجريئاً لأصب في أرض قاحلة يابسة، كأنها بحر أصابه الجفاف».

وواصل تترين الحديث: «فجأة غمر ماء النهر هذه المساحة الصحراوية، وبدأت تنمو أنواع مختلفة من النباتات والأزهار. وأمسك بيد الفتاة ومال نحوها قائلاً: «لقد رأيت المنام نفسه، يا ناتينا».

من جديد سادت برهة صمت، تحدث إثرها المعلم كونغ، وكان قد أغمض عينيه للحظات طويلة، قال: «يبدو لي منام هذين الولدين صافياً نقياً. نحن نمثل الأنهار الثمانية التي عليها أن تروي عقلهما. وهذا التعليم نلقيه عليهما بطريقة شفوية سوف يخصب لاحقاً جميع الذين ينقلانه اليهم».

وضّحت أنسيا: «أشاطر وجهة النظر هذه. فالنقل الشفوي يبدو لي أشد.

ملاءمة للتعليم الروحي من النقل الكتابي الذي يجمّد الأمور. ما نقوله لهذين الحداث يظل مطبوعاً في قلبهما، ولكنهما سيعاودان قوله بطريقتهما الخاصة، كما يكونان استوعباه وعاشاه بدورهما خاصة».

وافق الحكماء الآخرون بايماءة من رؤوسهم.

أردفت مآندرا قائلة: «لقد حللنا إلى حدٍ ما الصعوبة الثانية التي أشار إليها الكاهن دورجه، ولكننا لم نحلّ بعد الصعوبة الأولى. فما عسى أن يكون فحوى هذا التعليم الذي سوف ننقله إلى هذين الفتيتين؟».

النقطة الجوهرية لا تبصرها العين

قال الحاخام شلومو بمسحة من السخرية: «ما من شك أن من الأسهل بيان ما يفرقنا من الإفصاح عما يجمعنا».

أكدت غابرييلا أن المسألة الأساسية التي لن نتوصل إلى الاتفاق عليها هي مسألة تعريف «المطلق»، أنا، على سبيل المثال، أشاطر الرؤيا الحلولية للحكماء الرواقيين أو لسبينوزا، ومؤداها أن الله ممتزج بالطبيعة. إنه ليس الكائن الأسمى، خالق العالم الذي يتكلم إلى البشر عن طريق الانبياء، كما يؤمن المسيحيون والمسلمون، إنما هو قوة لاشخصية موجودة في كل كائن وتؤمّن للعالم انسجامه.

صاح الشيخ يوسف وقد نددت عنه فقهه عالية: «دعونا من الكلام عن الله! هنالك معتقدات كثيرة أخرى تجمعا. فنحن نؤمن مثلاً بوجود عالم مرئي، يسهل على حواسنا إدراكه، وعالم غير مرئي نحس بوجوده بقلبنا وعقلنا وحواسنا».

أردفت غابرييلا قائلة: «هذا أكيد. فالروح غير المرئية والمادة المرئية تتداخلان بطريقة عجيبة. إلى ذلك، أيدت الدراسات العلمية الأخيرة هذه الناحية، وهي أن جميع ضروب الحكمة في العالم أكدتها. غير أننا ما عدنا، في نهاية المطاف، نعرف بصورة جيدة ما يتعلق بالمادة أو ما يتعلق بالطاقة الروحية».

قال المعلم كونغ بدوره: «نعلم أن هناك سيالات غير مرئية تعبر العالم وجسم الإنسان. وطب الطاقة الصيني مبني على هذه المسألة. وليس لهذا العالم غير المرئي، المكون من قوى أو طاقات، أي صلة بعلم ما وراء الطبيعة بل بالطبيعة وحدها. نحن نؤمن ببساطة، وخلافاً للماديين، أن ثمة في الطبيعة مستويات متعددة

من الواقع: مستوى مرئي خاضع للملاحظة والقياس بواسطة الحواس، ومستوى آخر أرق وغير مرئي بواسطة عين الجسد، إنما هو مع ذلك واقعي، وبميسورنا أن نتدخل بشأنه. وهذا بالفعل ما تعلينه يومياً في أعمالك المعتادة، يا عزيزتي أنسيا.

بكل تأكيد. فالغشبية الشامانية حالة معدلة من الشعور نحس فيها بمستوى آخر من الواقع. وأنا

حين أغوصُ في حال من الغشية يتعدل شعوري وتفكيري. فأحس بشكل وألوان نفوس الأشخاص المحيطين بي، وكذلك بوجود كائنات لامرئية مشوشة. ويرتكز عملي على معالجة النفس بغية شفاء الجسد.

قال الحاخام بقوة: «إن مسألة النفس هي النقطة الجوهرية التي تجمعنا. فأياً تكن التسمية التي نطلقها عليها، نختبر جميعنا جزءاً حميماً وغير مرئي لا يمكن رده إلى الجسم المادي».

هزَّ الحكماء الآخرون رؤوسهم إيداناً بالموافقة. وبأشر الصوفي الكلام قائلاً: «سأضيف هنا أننا نؤمن كذلك بخلود جزء من النفس، هو الروح. وهذا صحيح أيضاً، إن لم أخطيء الظن، بالنسبة إلى الفلاسفة اليونانيين القدامى».

أجابت غابرييلا: «هذا عين الصواب. إذ إن معظم الفلاسفة القدامى، بدءاً بفيثاغورس إلى أفلوطين، ومروراً بسقراط وأفلاطون وأرسطو والرواقيين، يؤمنون بوجود جزء من النفس خالد. والحقيقة أن هناك، بالنسبة إلى اليونانيين، نفساً نباتية تحافظ على وحدة كل جسم حي، ونفساً نفسية لدى البشر والحيوانات، وأخيراً نفساً روحية خاصة بالإنسان، هي أل- «نوس»، يمكننا أن نصفها ب- «الروح». هذه النفس الروحية خالدة، ولأنها ذات أصل إلهي، تلتحق بعد الموت بالإلهي. في هذا الصدد، نؤمن أساساً بالشيء نفسه».

رفع الكاهن دورجه يده اليمنى علامة الاعتراض، قال: «بالتأكيد، ولكن الروح بالنسبة إلينا نحن البوذيين، لا بداية لها ولا نهاية، رغم أن الله خلقها في الجسد لحظة الحمل، أو أثناء مدة الحبل بالجنين في الرحم، في منظور أصدقائنا اليهود والمسيحيين والمسلمين. وبينما نحن نؤمن بأن النفس تنتقل من جسد إلى آخر حتى حصول اليقظة، يؤمن أصدقائنا أنها لا تتجدد إلا مرة واحدة، وأنها تواصل بعد الموت حياتها في ما وراء هذا العالم، إما في النعيم وإما في الجحيم، وذلك وفقاً لأفعالها الإيجابية أو السلبية التي تكون أنتها خلال وجودها في هذه الحياة».

وأردف الأب بيدرو: «إن موقفنا، مع ذلك، أكثر دقة وتبايناً. فما نسميه الجحيم هو الحرمان من الخير الأسمى الذي هو الله، وما نسميه النعيم هو الاستمتاع الأبدي مع الله. إذ إن أغلب نفوس الموتى تعرف على الأرجح منزلة وسطى بعد الموت، هي حالة تطهير تستوجب فرح المعرفة التي تؤكد أن الخير الأسمى موجودٌ وأنه محبة، وأن القصاص هو بالإبتعاد عنه، كما أن قبول بعض الآلام المطهرة أمرٌ ضروري لموافاته».

قالت ماآنداء، وقد علت وجهها ابتسامة عريضة: «مهما يكن فنحن كلنا مقتنعون أن هذه الحياة أساسية، وأن أفكارنا وأفعالنا تحدد ليس فقط سعادتنا على الأرض، بل الحياة المستقبلية لروحنا بعد موت جسدنا المادي، أليس كذلك؟».

وافق الحكماء بالإجماع.

«لذا أقترح أن التعليم الذي سننقله إلى هذين الولدين لن يركز على المعتقدات، وإنما على الموقف الصحيح الواجب اتخاذه في هذه الحياة من أجل النجاح فيها بالمعنى الأعمق للعبارة».

أضاف الصوفي: «أنا موافقٌ تمام الموافقة. لندع جانباً النواحي اللاهوتية والطقسية التي تميز تقاليدنا، ولا نحافظ إلا على الأحكام التي تساعد على الحياة وعلى التقدم في دروب الروح».

وافق أيضاً الأب بيدرو بقوله: «لننتقل من خبرتنا، فقد استطعنا أن نلاحظ أنها تجمعنا في البحث عن الحكمة بصرف النظر عن العقائد والطقوس التي تفصل بعضنا عن بعض».

قالت أنسيا بدورها: «أوافق كذلك على هذا المسعى. فنحن جميعاً ملتزمون بالبحث عن الحقيقة والنور. وسنعلم تماماً أن نستخلص منها الخطوط الرئيسية وشرحها بعبارات بسيطة لهذين الطفلين اللذين قلبهما طاهر وعطشهما للمعرفة شديداً جداً».

أضافت غابرييلا أيضاً: «كيف يمكن للمرء أن يعيش حياة صالحة؟ فالبحث عن الحكمة يجمع الناس الساعين وراء مثال أعلى نبيل، سواءً أكانوا مؤمنين أم غير مؤمنين. إنه تحديد الفلسفة بالذات، التي تعني «حب الحكمة». هذا البحث مبني قبل كل شيء على العقل والخبرة، ولذا فهو يتسم بالشمول.

وأجمل الكاهن النبيتي خلاصة النقاش قائلاً: «حسناً، بما أننا جميعنا متفقون، أقترح أن ننزوي بضعة أيام للصلاة والتأمل. ثم نجتمع كلنا لنضع معاً ما يبدو لنا أنه المبادئ الأساسية للحكمة. عندئذ فقط في وسعنا أن ننقل ثمرة تفكيرنا إلى تنزيين ونااتينا. ما رأيكم؟».

وافق الحكماء السبعة على اقتراح الكاهن ونهضوا متخذين سبيلهم إلى صومعاتهم إبتغاء التأمل.

الطيارة الورقية وروح العالم

بقي المراهق والمراهقة وحدهما في الشرفة. كانا قد تشربا كلمات الحكماء، ولو لم يستوعبا معانيها دائماً. لقد قلنا خصوصاً للمسؤولية الفادحة الملقاة على عاتقهما. هل كانا سيفهمان ويحرصان على التعاليم التي تلقى عليهما؟ استطلعت ناتينا في نظر تنزين القلق نفسه الذي يبيلب أفكارها. عندها أمسكت بيده وهمست له والإبتسامة مرتسمة على شفثيها: «لحسن الحظ أننا إثنان. ما لن أستوعبه أنا ستفهمه أنت بالتأكيد، وما ستنساه ربما سأذكره أنا حتماً!».

ابتسم تنزين بدوره قائلاً: «أنت على حق. ومن الأفضل إراحة الذهن، لأنه عما قليل سيخضع لتجربة قاسية! تعالي، سأريك طيارة الورق الرائعة التي أهداها إلي الكاهن درجة لمناسبة عيد ميلادي الثاني عشر».

بينما كان تنزين وناتينا يلعبان بالطيارة الورقية في الشرفة أو كانا منصرفين إلى ممارسة تمارين اليوغا لعلّ التوفيق يحالفهما في استخدام جسدهما وعقلهما، ظل الحكماء الثمانية منعزلين في صومعاتهم لثلاثة أيام. ثم اجتمعوا، كما اقترح عليهم الكاهن دورجه، في البهو المشترك وتبادلوا الآراء فيما بينهم لأربعة أيام أخرى. وطلبوا أن يحمل إليهم الطعام صباحاً ومساءً، وقضوا ما تبقى لهم من الوقت في مناقشة الموضوعات التي ودوا تداولها مع المراهقين. وكانوا، في ساعة متأخرة من الليل، يلتحقون بغرفهم الصغيرة ويرتاحون، ويعاودون تبادل الآراء.

في صباح اليوم الخامس، بينما كان الحكماء يدخلون البهو المشترك أخذت أجراس الدير تقرر بمعزل عن أي تدخل بشري. أحد الكهنة المسنين، وكان ينعم بموهبة التكهن، أول الظاهرة على أنها نذير شر. وربطها بفرار حيوانات الأروية الغامض. وقال دون أي تعليق وقبل أن يتابع تلاوة صلواته: «لقد أُنذرتنا القدر مرتين أن قوة مظلمة تنشط في العالم وأنها ستنتال منا في أمد قريب».

عندئذ قرر الحكماء الثمانية نقل تعليماتهم دونما إبطاء. فمنحوا أنفسهم يوماً للراحة، إنصرف فيه معظمهم إلى التنزه خارج الدير.

صبيحة يوم غد، جمع الكاهن دورجه، بعد تلاوة الفروض الدينية وتناول وجبة الإفطار، الطفلين والحكماء الآخرين في الشرفة. فتعلقوا بشكل دائري على الأرض أو فوق كراس واطئة. وكان تنزين

وناتينا، المتربعان جنباً إلى جنب، قد اعتراهما الخوف من جراء طابع الطقس الفخم، فيما تغير الحكماء أثناء الأيام الثمانية المنصرمة. فغدت أسارير وجوههم هزيلة أو مشدودة، وبدوا جميعاً ذوي مظهر رصين مفرط في التركيز. وقد فوجئت ناتينا خلال الأيام الأخيرة أن تجد أمها كل مساء في حال من الاستبطان الشديد لم تعهدها قط من قبل.

بعد لحظة خلوة مع النفس، أغمض خلالها الحكماء أعينهم، تكلم الكاهن دورجه بصوت بطيء رصين: «يا ولديّ، لقد توصلنا إلى اتفاق فيما بيننا على سبع نقاط رئيسة توجز خلاصة الحكمة البشرية. وكل يوم سنتاح الفرصة للقيام بشرح إحدى هذه النقاط. وسوف نتناوب على الكلام تباعاً، وأحياناً مرات عديدة. وسنتحدث ببطء متوقفين لفترة مهمة من الوقت بين كل مداخلة وأخرى، كي تتمكننا من طبع الكلمات التي تكون قد قيلت في ذاكرتكما. وسيعمد البعض منا إلى شروح مفصلة. وآخرون سيوضحون أفكارهم بسرد حادثة أو حكاية مستمدة من تقاليدنا، أو لا يلقون عليكم سوى القليل من الكلام بحسب ما تجود به قريحتهن.

وتابعت غابرييلا قائلة: «سوف نضطر أحياناً إلى ذكر مصدر الحكمة هذا أو ذلك. ولكننا ابتغاء التشديد على الطابع الشمولي لهذا التعليم، لن نذكر اسمه ولا المصادر التي ألهمتنا وتجنباً منا لكل إشارة صريحة إلى ما يسميه البعض

منا الله، البعض الآخر ال- «دهرما»، وآخرون «الإلهي»، أو ال- «طاو» أو «المطلق»، اتفقنا على استعمال عبارة «روح العالم» دون سواها. هذه الصيغة الخاصة بفلاسفة اليونان القدامى تعني، بصرف النظر عن كل عقيدة دينية، حضور قوة عجيبة وخيرة في الكون، تحافظ على نظام العالم، وبهذا المعنى سنفهمها. وهي توحى للمؤمنين بحضور الله أو بعقل منظم يسود العالم، هو بمثابة رعاية فائقة له. وتوحى بالنسبة إلى الآخرين بطاقة روحية تصون انسجام الطبيعة كما النفس بالقياس إلى الجسد. مرة أخرى نشير إلى أننا لن نتحدث إلا عن أمور قمنا بتجربتها. بعض وجوه هذه الصياغة ستحمل لون تقاليدنا الخاصة، غير أننا اتفقنا بخصوص نواة التعليم المركزية التي سننقلها إليكما. إسما ما علينا أن نقوله لكما سواءً بأذن الذكاء أو بأذن القلب».

انفعلت ناتينا وتترين، فأغمضا أعينهما التي تحولت إلى داخلهما، إلى صميم قلوبهما وعقلهما.

الجزء الثاني-ي
مفاتيح الحكم-ة السبعة

اليوم الأول المرفأ والنبع أو معنى الحياة

تكلم أحد الحكماء قائلاً: «يا ابنَيَّ البشر، إسمعا التعليم النبيل الأول حول معنى الحياة البشرية».

إن معظم مصائب الإنسانية مصدرها أن العديد من الناس، ولا سيما من يمارسون منهم السلطة ويملكون الثروة، لم يتساءلوا يوماً عن معنى وجودهم في الحياة. فهم يعيشون متبعين انحدار نزواتهم وحاجاتهم المادية. ويهبطون، بغير وعي منهم، نهر الوجود، وهما أشبه بحطبات تتقاذفها المياه، دون أن يتمكنوا من السيطرة على شيء من مجرى حياتهم. وعلى هذا، حتى الجثث المرمية في النهر، تتحدر أسرع من انحدار الأحياء! ولكن هل لا يزال «حياً» ذاك الذي يعيش تبعاً لحاجات جسده المباشرة، ويخفق مشكلات نفسه وحاجاتها؟

لماذا نحن على الأرض؟ هل لدينا هدف نسعى لتحقيقه؟ وهل الأحداث التي تجري لنا هي ثمرة المصادفة ليس غير، أم أنها ذات مغزى؟ هل لنا مصير يتعين علينا تحقيقه؟ هل نحن ألعوبة بيد غرائزنا وتربيتنا أم بوسعنا أن ننعم بحرية حقيقية؟ لئن كانت هذه حالتنا، فكيف نحسن استخدامها؟ وعلى أي صخرة نبني حياتنا؟ هل يمكن بلوغ السعادة الحقيقية الدائمة؟ كيف نغذي نفسنا كما نغذي جسدنا، وكيف نيسر التقاهم التام بين جوادِيّ عربة الجسد البشري؟ هل تزول روحنا مع زوال الجسد المادي؟ وهل تستمر بالبقاء في بعد آخر أم أنها مدعوة للتقمص في جسد مختلف؟

هذه هي الاسئلة التي ينبغي أن يطرحها كل إنسان عندما يدرك أنه حيوان خاضع لقوانين اللذة والالم الشاملة، وقوانين الانجذاب والتنافر؛ إذ لا أهمية للكلمات المستعملة التي تتيح له السيطرة على جسده وانفعالاته ونزواته، حين يكشف أنه يمتلك روحاً أو نفساً روحية. إن عظمة الكائن البشري تكمن في كونه الكائن الحي الوحيد الذي بميسوره أن يتساءل عن المعنى من وجوده على الأرض وتحديد وجهة له وغاية واضحة.

ولكن بئس الإنسان الذي لم يكتشف حرم الروح! بئس الذي لا همَّ له سوى البقاء على قيد الحياة! بئس الإنسان الذي لا يطرح أبداً على نفسه السؤال الآتي: كيف علي بالضبط أن أعيش بصورة جديرة بالإنسان؟ كيف أحيأ حياة صالحة؟ ما هو مهم حقاً وما هو غير مهم؟ كيف يمكنني أن أحقق ذاتي

بشكل تام؟ كيف لي أن أنجح في حياتي لأتمكن عند ساعة موتي من مغادرة الدنيا بسلام، وأنظر ورائي وقلبي مفعم بالهدوء والسكينة؟

بئس الإنسان الذي لا يدري أنه يملك في دخيلة ذاته كنزين كبيرين: صفاء الذهن الذي يمكن أن يجعله حراً، وطيبة القلب التي يمكن أن تجعله سعيداً. بئس الإنسان الذي يعيش حياة شبيهة بحياة الحيوان، مقيداً بغرائزه، لا ينشغل باله إلا بهموم الحياة المادية. بئس الإنسان الذي لا يعرف أنه إنسان».

تحدّث أحد الحكماء قال: «الحياة سفرة. ونحن مدعوون يوماً، على غرار الطيور، لمغادرة عش طفولتنا كي نطير بأجنحتنا الذاتية. سوف نكتشف الحب ونبني في الغالب عائلة لنا. وسوف نتعلم مهنة لنحقق ذواتنا في عمل من الأعمال ونسد حاجتنا المادية وحاجات أولادنا. كل هذا دليل خير، إنما كل هذا لا يعتبر كافياً.

سوف نواجه على امتداد رحلة الحياة عوائق شتى. فقد يحلّ المرض، ويأفل الحب، ويموت ذوو القربى منا، ونحن لسنا أبداً على يقين من أننا قادرون دائماً على مواجهة مصاعب الوجود المادية. وسنكتشف كذلك كم هو صعب الحب، وكم هو نادر العثور على عمل ينمينا في العمق، وكم نحن أحياناً ضحية التناقضات الداخلية والمخاوف وسورة الغضب والإحباطات والحسد والقنوط. لا بد أن نتعلم، على مر الحياة، العيش وليس البقاء على قيد الحياة، بل العيش كلياً وعيوننا مفتحة بوعي وانتباه. أن نعيش وبوسعنا اختيار الأشخاص الطيبين ليشاركونا حياتنا اليومية، ونتحاشى ارتكاب الأخطاء نفسها كما في سالف الأيام، ونوفر لأنفسنا الوسائل الكفيلة بتحقيق ذواتنا وتحصيل السعادة قدر المستطاع. كل هذا يتم تعلمه مع الزمن والخبرة. غير أن من المفيد جداً استعمال صفاء أذهاننا في أقرب وقت لنقود خطانا في طريق الحياة. هكذا يمكن تجنب العديد من حالات الضياع والأخطاء والخيارات الخاطئة والمآسي الفاجعة».

وتكلم حكيمٌ آخر قائلاً: «إسمعا حكاية هذه المرأة التي تحمل طفلها بين ذراعيها. سمعت لدى مرورها أمام كهف صوتاً عجبياً يقول لها: «أدخلي وخذي كل ما يحلو لك، ولكن لا تنسي شيئاً واحداً: عندما ستخرجين ينغلق الباب تلقائياً إلى الأبد. إغتيمي الفرصة ولكن إياك أن تنسي الأمر الأهم. «دخلت المرأة الكهف مكتشفة فيه كنزاً خارقاً للغاية. وإذ سبى عقلها الذهب والماس واللآلئ، وضعت طفلها أرضاً واستولت على كل ما أرادت، وحلمت بما سوف يمكنها أن تفعل بكل هذه الثروات. هنا قال لها الصوت العجيب: «انقضى الوقت، لا تنسي الأمر الأهم. «لدى سماع المرأة المحملة بالذهب والحجارة الكريمة هذه الكلمات، هرعت خارج الكهف، فانغلق بابه من ورائها إلى الأبد. نظرت إلى كنزها بإعجاب، فتذكرت حينها فقط طفلها الذي نسيته في الداخل.

واستهل أحد الحكماء كلامه قائلاً: «كم من أبناء البشر تمضي السنوات المصيرية من حياتهم، لا همّ لهم سوى الأمور المادية أو التافهة وينسون الاستفادة من الوقت لاختبار التجارب الأكثر ضرورة

كالحب والصدقة والنشاط الإبداعي، وتأمل جمال العالم؟ هؤلاء ليسوا أغبياء ولا جهلة، إنما يجهلون ما تستطيع الحياة أن تقدم لهم أفضل ما لديها وهو لا يكلف شيئاً! إذ إن الزائد عن الحاجة مكلف، أما ما هو أساسي فمقدم بالمجان. هذا ما لا بد أن يعلموه. وكم من الناس يفضلون كذلك اقتفاء خطوات الجماعات التي تنقاد لأساليب عصرها؟ تعلماء، يا ابني البشر، السير في طريقكما، الطريق الصالحة لكما، تلك المهياة لكما، والتي ستبهج قلبكما».

وباشر أحد الحكماء قوله: «إن جسدنا يجوع ويعطش. وقد وفّرت روح العالم على هذه الأرض ما من شأنه أن يغذي ويروي جميع البشر، منذ نشوء العالم حتى نهاية الأزمنة. ولو عرفنا تقاسم الخيرات وساعدنا إخوتنا، لما شعر أحد منهم بالجوع قط ولا أحس بالعطش كذلك».

كما جعلت روح العالم في نفوسنا جوعاً وعطشاً يعطيان المعنى الأخير لحياتنا. فجوع النفس هو جوع إلى رسالة عميقة نحملها جميعاً في داخلنا. وطالما لم نجد هذا المرفأ سنهيم على وجوهنا ونفوسنا معذبة، كبخارٍ لا بؤصلة لديه. وقد يلزمنا بعض الوقت لاكتشاف ما نستطيع فعله ونسهم فيه ببذل خير ما عندنا. وسنظل جائعين إلى الأبد، ما دمنا لم نكتشف رسالتنا. هذا الهدف أو هذا المكان ليس بعيد المتناول. قد يكون عملاً، أو ولادة طفل وتربيته، أو نشاطاً فنياً أو رياضياً أو سياسياً، أو دعوة دينية. ليس المهم بما يتعلق الأمر، بل المهم هو اكتشاف السبب الذي من أجله نحن مهياون له. وهذا يضعنا في جو الفرح والحماس والممارسة الكاملة لقدراتنا ومواهبنا».

وتناول حكيم آخر الكلام قال: «صِرْ ما أنت كائن. إفعل ما تستطيع وحدك أن تفعله، واتبع صوت قلبك».

وتكلم أحد الحكماء قائلاً: «ليس أمامنا مرفأ نبلغه فحسب، أو رسالة نكتشفها، إنما أمامنا أيضاً نبع علينا اكتشافه، بإمكانه وحده أن يروي عطشنا الذي لا يشفى. قلة من الناس يعلمون ذلك، لذلك يفضلون ارتياد النهر على غرار سائر الناس، بدلاً من الصعود إلى المنبع».

هذا النبع، أطلقت عليه تسميات كثيرة فيما مضى، فقالوا إنه «الاتحاد بالله»، «الحرية القصوى»، «تحقيق الذات»، «الصحة»، «السعادة النهائية».

ليس المهم التسمية، بل ما وحده يكتسب أهمية، هو هذا النبع للمباشرة بالبحث عنه والتوجه إليه. يكفي أن ترغبوا من صميم قلبكما في بلوغ هذه الأهداف النبيلة. فهذا النبع وذلك المرفأ محتجان كالكنز الدفين، ولكنهما لا يكفان عن تزويدنا بالمؤشرات لنتمكن من العثور عليهما. فنتصب على طريقنا أشخاصاً بميسورهم أن يهدونا الصراط القويم، ويطبّعوا في قلوبنا لحناً وخازناً، ونغم ناي يغمرنا بالفرح عندما ننصت لبعض نوطاته.

إنكما لا تحتاجان إلى خريطة، ولا إلى بؤصلة، فالجوع والرغبة الصادقة في اكتشاف هذا المرفأ يوجهان سفينتكما، والعطش والعزم على الإتجاه صوب منبع النهر يوجهان خطاكما. وإذا أصغيتما إلى رغبات نفسكما العميقة وحاولتما تحقيقها، حينئذ تقودكما روح العالم. وكما قال أحد معلمي

الحكمة القدامى: «من أحس بالعطش فليبادر إليّ، ومن رغب في ذلك فليشرب ماء الحياة مجاناً، ولن يشعر بالعطش أبداً».

وتكلم أحد الحكماء قال: «تنشأ الصعوبة في أننا نخلط في أغلب الأحيان بين هذا الجوع وذاك العطش في نفوسنا وبين رغباتنا الحسية. فعطش الحواس يحمل معه العديد من الملذات، ولكنه يشكل أيضاً شركاً مخيفاً، لأنه يُمكن أن يضللنا في البحر الخالي من أي مرفأ، وفي الجبل المعدوم من أي نبع. وإذا لم نتسم بالوعي الكافي فسوف نهيم من رغبة حسية إلى رغبة حسية أخرى، ومن إشباع الحواس إلى إشباع الحواس، دون أن نشفي غليلنا أبداً. ولهذا السبب قال أحد الحكماء القدامى إنه لا بُدَّ من «تبريد العطش» للوصول إلى السعادة الحقيقية. لم يكن يعني عطش الروح بحثاً عن الحكمة، بل عطش الحواس اللامتناهي وعطش التعلق بها الذي يغمرنا بألم قانون الرغبة والإحباط».

وتكلم حكيم آخر قائلاً: «إن عالماً الحالي رهن جنون «المزيد» دائماً والفاعلية وتكديس الثروات، في حين أن الإنسان بحاجة إلى القليل من الأشياء ليكون سعيداً. ولا يتعلق جوهر سعادته بممتلكاته، إنما بسلام النفس. إسمعا حكاية الصياد البسيط الذي ارتاح في ظل شجرة نخيل، يتذوق سعادة الوجود. التقاه رجل غني، وطفق يشجعه على إنجاز المزيد من العمل. فأجابه الصياد: ولأي شيء؟».

- لكسب المال

- لأي شيء؟

- لتسكن في بيت جميل.

- وماذا بعد؟

- لتبني عائلة كبيرة.

- وماذا بعد؟

- لتتّمي علاقتك بأولادك.

- وماذا بعد؟

- بعد ذلك ستصبح مطمئن البال تتعم بالراحة. - هذا فعلاً ما أعمله الآن!

وتكلم حكيم قال: «إن الرضى يجلب السعادة حتى في حال الفقر، أما عدم الرضى فيجلب الشقاء حتى في حال الغنى. إذ ما من بلية أسوأ من روح الطمع». كما أكد ذلك أحد المعلمين القدامى بقوله: «السعادة هي أن يتمنى المرء ما يمتلكه بالفعل».

واستهل أحد الحكماء الكلام قائلاً: «ستكون سعادتك هشة، غير مستقرة، ما دمت تبحث عنها خارج ذاتك، مستمتعاً بالأشياء والأشخاص، وذلك لثلاثة أسباب: السبب الأول هو أنه من الصعب

الحصول على كل ما نشتهي. فبوسعنا أن نحلم بالتمتع بجسم موفور الصحة على الدوام، وبامتلاك بيت جميل، والتمتع بحياة غرامية منشرفة وحياة عائلية منسجمة، وبتوظيف طاقاتنا في نشاط مهني مثير للاهتمام، وتحقيق نجاح باهر في نشاطاتنا، ولكن ما أصعب الحصول على كل ذلك! إننا نبذل غاية جهدنا للاستحواذ على ما نرغب، وغالباً ما نحن عاجزون فنصاب عندئذ بالاحباط والخيبة والحزن أو النقمة على الحياة».

والسبب الثاني هو أن الأشياء الخارجية التي نطمح إليها خاضعة لقانون أساسي عام، هو قانون عدم الاستمرارية. كل ما في الطبيعة خاضع إذاً للتغير. لا شيء ثابت، دائم ونهائي. الأشياء تتبدل، والأشخاص يتغيرون، كل شيء في صيرورة. نُنعى بجسمنا فنتمتع بصحة جيدة، ولكنه قد يصاب بمرض أو يتعرض لحادث سير. نعيش برفقة شخص لا يمكننا الاستغناء عنه، إلا أنه قد يفارقنا أو يموت. نمارس مهنة أو نشاطاً يستهويننا، ولكن قد نتوقف عن العمل بسبب أحداث خارجية لا سلطان لنا عليها البتة. نملك سيارة فخمة أو لوحة لفنان شهير، غير أن بوسعهم أن يسرقوها منا. لقد بنينا إمبراطورية، بيد أن لا دوام لأي إمبراطورية. وجمعنا ثروة طائلة، ولكننا سنموت غداً ولا نحمل معنا شيئاً إلى القبر.

أما السبب الثالث فهو أننا لا نجد الراحة أبداً إذا وجهنا رغباتنا نحو الأمور الخارجية والأشياء المادية. فالإنسان بطبعه يتمنى دائماً شيئاً آخر. راقبا الطفل: يبدو راضياً عن ألعوبته، ثم يرى ألعوبة أخرى في يد طفل آخر، فيتخلى عن ألعوبته ويتمنى تلقائياً الأخرى. إن رغبة الإنسان تكيفي شكلي: أي أنه يتمنى دائماً ما يمتلكه الآخر. أو تعرفان الفرق بين الطفل والراشد؟ إنه حجم ألعوبته.

الرغبة، على سعيد الامتلاك، لا قيود لها ولا حدود. ولا بد للمرء لكي يكون سعيداً أن يتخلى عن منطق الامتلاك وينتقل إلى منطق الكينونة. كل معنى الحياة ينحصر بالضبط في أن يتعلم المرء «حالة كينونة جيدة»، بغض النظر عما يمتلك من أمور أو من أشخاص يمتعوننا، ومن أحداث تقع لنا. علينا أن نكتشف أن السعادة والشقاء قابعان في داخلنا وليسا في الأشياء والأحداث الخارجية».

وتكلم حكيم قال: «ليس الغنى شراً بحد ذاته بل العكس تماماً. فالمهم هو الموقف الداخلي الذي يتخذه المرء تجاه المال. إذ يمكن لغني أن يتصف بالكرم ولا يتعلق بالخيرات التي في حوزته، كما يمكن لفقير جداً أن يتعلق تعلقاً شديداً بالخيرات الضئيلة التي تكاد تتوافر له ويعيش في طمع دائم».

وتكلم أحد الحكماء قائلاً: «ولكن من المؤسف أن الأغنياء لا يرون العالم، في أغلب الأحيان، إلا من خلال لون المال والسلطان الذي يؤديه لهم. مع ذلك لا يجعلهم هذا الوضع أكثر سعادة. كان لكل من غني مفرط الثروة وفقير مدقع الفقر ولد. سعد الرجل الواسع الثروة بصحبة ولده إلى تلة، وأراه بإشارة من يده المشهد المحيط بهما قائلاً له: «أنظر، كل هذا سيصبح يوماً ملكاً لك».

أحس الابن في الحال بسرور غامر، إلا أن سعادته، وهو يهبط التلة عكر الخوف صفوها من أن يبذل أبوه رأيه، أو أن لا يعيش كفاية ليتمكن من تحقيق هذا الكسب.

وصعد الرجل ذو الفقر المدقع بصحبة ولده إلى التلة ذاتها، وأراه المشهد وهو يقول ببساطة: «أنظر. «ظَلَّ الابن هناك وراح يتأمل جمال العالم، وقد امتلأ قلبه فرحاً».

واستهلَّ حكيم الكلام بقوله: «إن الطموح الكبير الذي ينبغي أن يوجه حياتك هو أن تنمّي خير ما تتحلى به. وهو أن تغير نفسك لتبلغ حالة من السلام والفرح والسكينة الداخلية، لا يقدر شيء ولا أحد- ولا حتى الموت- أن ينتزعها منك. وكذلك أن تصبح خير إنسان ممكن، وأن تساعد الآخرين في حمل لِبْنَتِكَ الصغيرة، لبناء العالم. وكما قال معلمو الحكمة القدامى: «فكّر أن كل يوم هو حياة كاملة، سارع إلى أن تعيشها بصورة حسنة، بدلاً من أن ترغب في العيش طويلاً من غير الاكتراث للعيش، بحسب ما يمليه الخير عليك».

عندما توارت الشمس وراء الجبل الأبيض، لزم الحكماء الثمانية الصمت. واستمر التعليم، الذي توقف لبعض فترات الإستراحة، حيث تمكن كل منهم أن يستعيد قواه أو أن يعمد إلى الصلاة، استمر من الصباح حتى منتصف العصر. وكان لديهم الكثير مما يعلنونه حول هذه المسألة، إلا أنهم أحسوا بتعب الولدين وعجزهما عن سماع المزيد من الكلام. كان لا بد أن يخلد عقلهما إلى الراحة. فتوجه تترين، المدرّب منذ نعومة أظفاره على سماع تعليمات مديدة، إلى صومعته. وتلا بلا كلل الكلمات التي سمعها لتوه بغية طبعها في ذاكرته. أما ناتينا فشعرت بالحاجة إلى ممارسة التمارين الرياضية. فغادرت الدير وسارت لساعتين كاملتين. كانت عبارات الحكماء تتردد أصدائها في رأسها. كيف لها أن تحفظ كل هذا الكلام؟ التحقت بها ماأندا الهندية وداعبت وجهها بحنان وطمأننتها قائلة: «لا تحاولي أن تتذكري كل كلمة، إنه عمل مستحيل! بل حاولي فقط أن تحفظي الأفكار الرئيسية ومعنى التعاليم العام. وأريحي بالاحص ذهنك! وسوف ترين مستعربة أن كلمات كثيرة ظننت، لأسابيع أو شهور عديدة، أنها ضاعت سوف تظهر ثانية في ذاكرتك».

إستسلم الجميع لسبات عميق، باستثناء أحد الحكماء الثمانية الذي جافاه الرقاد، إذ كان أمرٌ ما يعكر صفو تفكيره، ولكنه لم يعلم في الحقيقة ما هو.

في صباح الغد، استيقظوا جميعاً، حالما عبرت الشمس الأفق، تناولوا وجبة فطورهم والتحقوا بشرفة الدير. تحلقوا بشكل دائري وظلوا لبعض اللحظات، وعيونهم مغمضة.

اليوم الثامن-ي العربة النبيلة أو الجسد والنفس

تكلم أحد الحكماء قال: «يا إبنَيَّ البشر، أصغيا إلى التعليم الثاني النبيل حول اتحاد الجسد والنفس.

لقد جادت علينا روح العالم بعربة ثمينة تتألف من حوذي وجوادين. الجوادان هما الجسد المادي والجسد الانفعالي النفسي. أما الحوذي فهو النفس الروحية أو الروح. علينا أن نتعلم، طوال حياتنا السيطرة على هذه العربة الغريبة. إذ إن عملها المنتظم رهن بالإتحاد الوثيق والتام بين العناصر الثلاثة التي تتكون منها. فإذا كان الحوذي ضعيفاً أو عديم الخبرة ولا يملك زمام دابتيه، توجهت العربة في كل اتجاه، أو سقطت في وهدة أو هامت على وجهها إلى ما لا نهاية. وإذا لم يتقاهم الجوادان بينهما، فمن الصعب السيطرة على العربة ويغدو سباقها فوضوياً. أما إذا كان الجوادان منهوكي القوى أو تعرضا لسوء التغذية، فالعربة سوف تتقدم بجهد ومشقة. هكذا يتعلم المرء العيش عندما يبدأ بالتعود على معرفة جسده والعناية به، ووعي نفسه وعقله، ومراعاة التقاهم السليم بين هذه الأبعاد الثلاثة التي يتألف منها كياننا».

وتكلم حكيمٌ من الحكماء قائلاً: «تعلمنا أن تعرفا الجواد الأول، جواد جسدكما المادي، أحببنا واعتنينا به. اكتشفا من خلال التجربة قدراته وحدوده. نمياً طاقاته وحافظنا عليها بممارسة التمارين الرياضية. إجمعا المرن- اليوغا، الرياضة البدنية الناعمة- والمقوي: سباق العدو وتربية العضلات، ولكن لا تتجاوزا حدود الجسد بل راعيا جانبه، لأنه بحاجة إلى الراحة. هذا، وناما كل ليلة العدد الكافي من الساعات، واعلمنا أن كل إنسان يختلف عن غيره، فحيث يحتاج أحدهم إلى ست ساعات ليرتاح، تتعين على غيره تسع ساعات.

وتتطور مدد الراحة على امتداد الحياة. كما يحتاج جسمكما إلى الغذاء. وينبغي ألا يؤمن الغذاء اللذة وحسب، إنما عليه أن يمد الجسم بالطاقة الضرورية. ويجب أن يكون الغذاء متنوعاً، متوازناً ومتلائماً مع حاجات كل فرد. كذلك لا بد أن يتنفس جسمكما. فتعلمنا السيطرة على تنفسكما بفضل تمارين بطيئة وواعية من الشهيق والزفير.

من المستحسن أن يحب المرء جسده، ويوفر له أسباب اللذة ويسهر عليه. لا تستمع إلى الذين يحتقرون الجسد. إنهم فئتان: هناك الذين يخافون الجسد ويحتقرونه باسم فضائل النفس. هؤلاء لا يملكون، بالرغم من أحاديثهم التقية، ذرة من الروحانية، لأنهم يبنذون ما حبتهم به روح العالم. إنهم، باحتقارهم هبة الحياة الثمينة هذه وإساءة استعمالها، إنما يحتقرون الحياة. وسيشق على أنفسهم التي يتعلقون بها أشد التعلق أن تزدهر في جسد منتقص أو معرض للإساءة. هناك كذلك الذين يقسون على جسدهم جاعلينه خاضعاً للسخرى بلا رحمة، ودافعين إياه باستمرار إلى حالة من الهياج دون أن يدعوه يرتاح كفاية، ومغذيين إياه تغذية سيئة أو مفرطة، غير عابئين بملازمته بشكل واع أو غير مبادلينه الحب الكافي. وبعض الأشخاص لا يعيشون إلا في عقولهم قاطعين كل صلة بأجسادهم. وآخرون يركضون ويشتغلون دونما توقف من غير أن يولوا أجسادهم الاهتمام والراحة الضروريين. وهكذا يدفع جميع الذين يسيئون إلى أجسادهم لسبب أو لآخر الثمن عاجلاً أو آجلاً، إعياء وإرهاقاً أو أمراضاً مختلفة حارمين أنفسهم من سعادة كبرى: سعادة الشعور بطاقة الحياة تسري بسببولة في سيقانهم وأحواضهم وبطنهم وصدورهم وأذرعهم وأقفيّة أعناقهم وجماجمهم».

وتحدث أحد الحكماء قال: «تعلمنا أن تعرفنا وتحبا وتعنيا بالجواد الثاني، جواد الجسم النفسي. هذه الدابة الثانية لا تظهر لعيني الجسد المادي، ولكننا نشعر بوجودها من خلال حساسيتنا وانفعالاتنا وأحوالنا النفسية. وهي في منزلة

وسطى بين الجسد والروح، ولذا يمكن توصيفها بـ «جسد» و «نفس» على السواء. والحال أن هذا البعد النفسي مائل باستمرار في حياتنا اليومية: فنحن نواجه على الدوام انفعالات تؤثر في معنوياتنا وسعادتنا وعلاقتنا بالآخرين وإحساسنا بالحياة. من الأهمية بمكان أن نتعلم معرفة أنفسنا وانفعالاتنا: لماذا نعمل على هذا النحو؟ ما الذي يثير فيّ الفرح أو الخوف، الغضب أو الحزن، الحسد أو اليأس؟ لماذا أقع غالباً في العيوب ذاتها، وفي الانفعالات المشوشة ذاتها، وفي آليات التكرار ذاتها؟ وعلى العكس من ذلك، ما الذي يجعلني في مزاج رائع ويسعدني ويحثني؟ لا بد من عمل استبطاني لمعرفة الذات جيداً. ويمكن القيام بذلك بجهد فردي، ولكن من الأجدى غالباً، عند مواجهة اضطرابات انفعالية قوية، الاستجداء بسند خارجي. فكما هناك أطباء لمعالجة أمراض الجسد، هناك كذلك أطباء لمعالجة الجسم النفسي. لا ينبغي الخوف من التماس العون من شخص آخر، حين نشعر أننا لسنا على ما يرام، وإن انفعالاتنا تجتاحنا وتمنعنا من التمتع بسلام نفسي. والحال أن العديد من الجراح مصدرها الطفولة الأولى التي تطبعنا بطابعها طوال الحياة، مثيرة في مرحلة البلوغ تصرفات أو انفعالات تعيق تطورنا. حسن أن نعي المسألة منذ البداية ونسعى لحلها في الوقت الحاضر، باستخدام الوعي والوسائل الروحية المتوافرة لنا اليوم.

واستهل حكيم رابع الكلام بقوله: «لقد تحدثنا لكما عن الدابتين في العربية، فلنتحدث الآن عن الحوذي. ذاك الذي عليه أن يوجه الجسم المادي والجسم النفسي، إنه الروح أو النفس الروحية. كما يتوجب عليكما، يا ابني البشر، أن تعرفنا روحكما وتحباها وتعنيا بها. هذه هي الهبة الأعلى قيمة التي

حبتكما الحياة بها. إذ إن نفسكما الروحية ليست سوى جزء متناهي الصغر من روح العالم. بها تهتز ان ل- «طول موجة النفس»، هذا الذي يصل كل شيء وكل كائن في الكون أجمع. وبها تشعران بجمال العالم وانسجامه. وبها تبكيان أمام منظر جميل أو أمام تحفة فنية. بها تلمسان كل عظمة الحياة، وكذلك كل بؤس النفوس الخاوية. وبها تستطيعان أن تبدلا حياتكما من أجل إنسان غريب. وبها تصبوان إلى حرية كاملة. إنها تدفعكما إلى البحث عن ملاذ تعبّران فيه عن دعوتكما. وهي تدفعكما أيضاً إلى البحث عن نبع يمكنه أخيراً أن يشفي غليل كيانكما».

وتكلم أحد الحكماء قال: «تتجسد روحنا في مكانين وتبرز بصوتين: الذكاء والقلب. الذكاء يحثنا على البحث عن المعرفة والحقيقة والحرية، أما القلب فيحثنا على السعي وراء الحب. والاثنتان باتحادهما يجعلاننا نسعى في طلب الجمال والعدالة».

وتحدث حكيم قال: «إسمعا هذه الحكاية الحقيقية. تقدمت جماعة من سكان أستراليا الأصليين يوماً في منطقة طبيعية قاحلة، بصحبة عالم أجناس بشرية. لاحظ هذا العالم، الذي كان يسجل كل حركاتهم وسكناتهم، أن الجماعة المؤلفة من رجال ونساء، تتوقف عن السير لفترة طويلة إلى حد ما. لم تكن تتوقف طلباً للطعام، أو نظراً إلى أمر ما، ولا رغبة في الجلوس أو الإستراحة. كانت تتوقف لا غير. سأل عالم الأجناس البشرية، بعد وقتين أو ثلاث، عن السبب. فأجابوه: «الأمر في غاية البساطة، إننا ننتظر نفوسنا». طلب عالم الأجناس بعض الشروح الإضافية. وهكذا أدرك أن النفوس تتوقف في الطريق، من حين لآخر، لتنتظر أو لتشعر أو لتصغي إلى شيء ما يخفى عن الأجساد. كانت النفوس تتوقف في بعض الأحيان لساعة، وعليهم أن ينتظروها.

لنفوسنا حاجات تخفى عن أعين الجسد. فهي تتغذى بجمال العالم، وتغريد الطير، وبيعض النوطات الموسيقية. إنها تتغذى بالمعرفة والعلم والأبحاث. كما تتغذى بعلاقات الحب، وتبادل الآراء غير المغرضة، والاشتراف مع كل كائن حر في بذل الذات. وتتغذى كذلك في القسمة والعدالة والأخوة. لهذا يتوجب على الكائن البشري أن يستطلع ويغذي ويستخدم وينمي العضوين الروحانيين اللذين يخصانه، وهما القلب والذكاء».

وتكلم أحد الحكماء قال: «إن أنت لم تغدّ إلا جسداً عشت كالبهيمة، وإن أنت لم تغدّ إلا روحك عشت كالملاك». وقد يكلفك ذلك خيبات أمل قاسية، وفق كلمة أحد معلمي الحكمة القدامى «من أراد أن يمثل دور الملاك مثلاً دور الحيوان» وكثرتهم رجال الدين الذين يكتبون حاجات جسدهم وجنسهم ويعطون الآخرين، إلا أن الأمر ينتهي بهم إلى السقوط وإلى تسلط النزوات الأكثر انحطاطاً من نزوات البهائم عليهم!».

وتكلم حكيم آخر قائلاً: «تعلّموا إذاً، يا إبنَي البشر، أن تعرفوا وتحبا وتعنتيا بالدابيتين وبحوديكما. وهكذا ستتقدم عربتكما بطريقة ملائمة على دروب الحياة. ولكن ينبغي كيما تقودكما العربة بصورة مريحة جداً وإلى أبعد غاية ممكنة، أن تعلّموا دابتيكما وحوديكما العمل معاً بانسجام تام. فالحودي هو

الذي يتولى زمام العربة، وينسق جهود الدابتين، ويعرف أين يقصد، ويعطي الوجهة والسرعة الصحيحتين. كما لا بد من أن تسيطر الروح على الجسم المادي والجسم النفسي. غير أن السيطرة لا تعني التسلط والطغيان. إنما ينبغي للروح أن تضبط الجسد والنفس بإبداء الاحترام لهما والتعلم منهما أيضاً. وفيما لا يملك الجوادان القدرة على معرفة الطريق المزمع سلوكه ولا يكفان عن الاستجابة لأحاسيسهما المباشرة، تطبع الروح الحياة بوجهة ومعنى خاص وهي تحدد، منصتة لنداء الذكاء والقلب، الطريق الأمثل الواجب اتباعه وفقاً للغاية المنشودة. أنها تنظم القيم بتسلسل تدريجي وتحدد أولويات تساعد على حسن الاختيار عند مفارق طرق الحياة».

وتحدث حكيم قائلاً: «شمة تمرين رائع يُعين على المعرفة والتفاهم التام بين الدابتين والحوزي على حد سواء، هو التأمل. فالتأمل يصل الجسم والنفس والروح. عندها يرسخ التمرين في الجسم: إذ يجلس المتأمل مستقيم الظهر، متنبها لتنفسه الذي يتم حراً عميقاً، مركزاً تفكيره في كل جزء من أجزاء جسمه. كذلك يراقب الاحساسات الجسدية المتعددة والأفكار والانفعالات المنبثقة. فلا يتابعها ولا يناقشها، بل يكتفي بمراقبتها والتغاضي عنها. حينئذ يكتشف، بصرف النظر عن كل هذا الدفق من الانفعالات والأفكار، عمق روحه. كما يكتشف في دخيلة نفسه فضاء يفلت من غزو الانفعالات، وصمتاً يتجاوز ضجيج الأفكار، وفرحاً وسلاماً مائتين على الدوام. إن تمرين التأمل اليومي (ولو لعشر دقائق في البداية) يقوي روحنا ويوحد جسمنا وبنفسنا. في المرة الأولى يكون الأمر صعباً جداً: نشعر بالألم في جميع أجزاء جسمنا، وتجتاحنا الأفكار بشكل كامل. ثم يسترخي الجسم، على مرّ الأيام، ويصبح التنفس أعمق ويزداد العقل هدوءاً وصمتاً. فنعرز هذا الفضاء الداخلي على غرار أي عضلة، ونجعله منيعاً على جميع الانتقادات: انتقادات الأفكار والانفعالات الصادرة عن النفس، وكذلك تلك الناجمة عن الكلمات الجارحة، والمضايقات النفسية والطاقات السلبية الموجهة إلينا».

واستهل أحد الحكماء الكلام بقوله: «لقد عاش كثيرون وفقاً لغرائزهم وانفعالاتهم أو تقاليدهم وعادات مجتمعهم، دون أن يقوموا إطلاقاً بخيار حقيقي، ودون أن يتحلوا بالذكاء ينفعل إزاء جمال المعرفة، ودون أن يسود فرح العطاء قلوبهم. لقد تمتعوا بلذات متواضعة، لا بأفراح غامرة. وعاشوا غراميات مطمئنة، لكنهم لم يعيشوا ذلك الحب الذي يلهب القلب ويوسعه بمثل أبعاد العالم. إنهم أكلوا لدى شعورهم بالجوع غير أنهم لم يتذوقوا نشوة الروح حيال الحق والجمال. كما تعلموا مهنة وكسبوا لقمة عيشهم، غير أنهم لم يكتشفوا بالتأكيد النشاط الذي بوسعه أن يملأهم حماساً. إنهم عندما سيفارقون الحياة، سيتساءلون: «ما الجدوى من العيش؟ لم يكن للوجود أي معنى! أين هي السعادة التي تفت إليها أحياناً؟ أين هو الحب الذي تمنيته؟ أين الحقيقة التي حدّثوني عنها؟ وماذا أضحت الحياة التي حلمت بها وأنا طفل؟ عندئذ سيأتيهم الجواب التالي: «كنت تملك في ذاتك عقلاً باستطاعته أن يعطي لحياتك معنى، ويقودك إلى السعادة والحب الحقيقيين، ويؤدي بك إلى الحقيقة ويجعلك تعيش أحلامك... بيد أنك تجاهلته».

تقدم الليل كثيراً وساد الدير صمت عميق. مع ذلك، لم يستطع واحد من الحكماء أن يستسلم

للرقاد، فخرج ينتزه في الشرفة. لقد انقضت ليلتان وما زال النوم يجفوه. حاول أن يتقهم القلق الخفي الذي يساوره، فتبين له أنه ناجم عن طبيعة التجربة نفسها التي يعيشها. في البداية تبنى هذا المسعى كليا لنقل تعليم شامل، لكنه الآن، وقد تم تحقيقه، إذ بصوت داخلي خافت يهمس له: «ما فعلته محفوف بالمخاطر. أو تعتقد أن كل المسيرات الروحية تتساوى فيما بينها؟ أنت تقيم إذاً وزناً جد قليل للإيمان الذي تلقينته من آبائك، هؤلاء الذين علموك الدين الموحى به من الله بالذات؟ إنك تعلم مبادئ حكمة شاملة مزعومة، فيما يبدو أنك تنسى أهمية الممارسات والتقاليد المتوارثة جيلاً بعد جيل، وهي بمثل هذه الفائدة للخلاص».

لم يتوصل الحكيم، الذي أفض هذا الصوت مضجعه، إلى أن يخنقه.

فتوجه إلى الصلاة من أجل طمأنة نفسه.

في اللحظة ذاتها، تسرب ضوء خافت تحت باب غرفة غابرييلا. وجدت الفيلسوفة أيضاً صعوبة في الاستسلام للنوم، ولكن لسبب مختلف كل الاختلاف. كان قلبها مغموراً بشعور غامر من السعادة. فطفقت تتشجج في سريرها. عندها وافت ناتينا أمها قائلة: «ما الخطب، يا أمه؟».

- لا تقلقي، يا حبيبتي، إنها ليست دموع حزن بل دموع فرح. وضمت ابنتها بين ذراعيها. لقد مزق البشر بعضهم بعضاً بوحشية خلال العصور باسم معتقداتهم الدينية. ما يحدث هنا يبلبل أفكارى، فيكاد يصعب عليّ تصديق ذلك.

- مع ذلك ليست المرة الأولى، يا أمه، يجتمع فيها حكماء ويتبادلون أطراف الحديث ويشاركون في الصلاة.

- أنت على حق. غير أن كلاً منهم سيغادر لاحقاً، وعقله منسبث بمعتقداته الخاصة. أنهم يتعانقون على الملأ، وهذا خير من أن يتقاتلوا، إلا أنهم لا يكفون عن التفكير في قرارة نفوسهم أنهم على حق وأن الآخر على ضلال، بينما ما يحدث هنا ذو طابع مختلف. حتى ولو كانت بعض طرق قول الأمور تصطبغ بألوان ثقافتنا الخاصة. فنحن نعتنق تماماً محتوى هذا التعليم الذي ننقله إليكما لأنه يحيينا. لقد اكتشفنا، بالرغم من كل ما يفرقنا، أن تجاربنا الروحية تستجيب لقوانين الحياة الداخلية نفسها. إنه لأمر رائع! هذا يعني أن الإنسان هو ذاته في كل مكان، وأنه يشعر بالطموحات عينها والمخاوف ذاتها، وكذلك ميول القلب هي نفسها ومشاعر الأنانية ذاتها. ما يجمعه أهم بما لا نهاية له مما يفرقه، وهذا ليس سوى ثمرة الثقافات المختلفة.

- إني أيضاً على علم بذلك، يا أمه، عبر الانترنت. فلي أصدقاء في كل أنحاء العالم. ولا أهمية للجنس والدين أو اللغة. أنهم يتحدثون عن أمور تخصنا جميعاً: عن الحب والصدقة، وعن دراساتنا وأهوائنا. ونحلم كلنا بعالم ومستقبل أفضل، حتى ولو لم نصدق ذلك كثيراً.

- إن جيلك، جيل العولمة، لن يفنى بخلاف أجيال أجدادك. إنه سيبرهن أن الحقيقة موجودة هنا

وليس في مكان آخر. ولكن كما عبرت عنه بطريقة رائعة، فإن فتور الهمة واليأس هما اللذان يترصدكما».

أمسكت غابرييلا بابنتها من كتفيها ونظرت محدقة في عينيها: «ليكن معلوماً لديك أن بإمكان العالم أن يتغير. وسوف يتغير لأن كل واحد منا سيتطور. وهذا هو السبب الذي من أجله جمعنا روح العالم في هذا المكان. قال غاندي: «كونوا التغيير الذي تريدونه في العالم» سترين، يا حبي، أنك سوف تشاركين بفعالية في تحول العالم وشفائه».

اليوم الثالث توجّه صوب نفسك أو عن الحرية الحقيقية

قطعت تغريدة عصفور نياط السماء. هنا انبرى أحد الحكماء للكلام قائلاً: «إسمعا، يا إبنّي البشر، التعليم النبيل الثالث حول معرفة الذات والحرية. كل الناس يصبون إلى أن يكونوا أحراراً، وهذا يشكل طموحاً كبيراً وجميلاً، إذ ما قيمة حياة سجين أو حياة عبد؟ مع ذلك هناك العديد من أشكال السجن والعبودية. أدقها وأكثرها خطورة تلك التي يعتبرها قلة من الرجال وينددون بها، أعني السجن الداخلي للإنسان عبد ذاته. هل هو حر الرجل الذي يمسي متوتر الأعصاب، قلقاً متهيجاً لأنه لم يتمكن من تدخين سيجارته؟ هل هو حر الرجل الذي لا يمكنه إلا أن يتبع كل نزواته الجنسية؟ هل هو الرجل الذي يمضي ساعات عدة في اليوم أمام شاشته ولا يسعه الانفصال عنها؟ هل هو الرجل الذي ينقاد لمأزق غيرة عنيف لدرجة ضرب زوجته؟ هل هو الرجل القلق بحيث يعجز عن الكلام أمام الملاء، أو ذاك الذي لا يقدر على البقاء في غرفة شاهد فيها عنكبوتنا؟

نحن جميعنا سجناء مخاوفنا ونزواتنا وأطماعنا وعاداتنا وانفعالاتنا إلى حد بعيد. فمعظم أفعالنا وخياراتنا تحركها هذه الميول المتسلطة علينا. نحن سجناء ذواتنا، نستطيع وحدنا أن نتحرر من هذا السجن الداخلي».

وتحدث حكيم آخر قال: «أن بداية التحرر تمر عبر معرفة الذات. من خلال استبطان ومراقبة دقيقة لتصرفاتنا، وردود أفعالنا، وبروز انفعالاتنا، نتوصل تدريجاً إلى معرفة ذواتنا وتفهم أسباب أفعالنا العميقة. ويتطلب العمل على أنفسنا، وتصويب ردود أفعالنا، وتعديل منعكساتنا التلقائية أو عاداتنا السيئة، يتطلب جهداً واردة. لكن ذلك هو الثمن الذي لا بد من دفعه لاستعادة حريتنا الداخلية. إذ إن الإنسان الذي يجهل نفسه هو أشبه بأعمى، يمشي دون ثقة بالنفس ويخاطر كل لحظة بصدم عائق أو بالضياع. لهذا فإن رأس الحكمة لفت أنظارنا نحو ذواتنا ومعرفة من نحن، وما هي حاجاتنا وحوافزنا وردود أفعالنا وتجاذباتنا وكراهياتنا وعاداتنا وانفعالاتنا الأقوى، وما هي أسبابها. وكما قال أحد معلمي الحكمة القدامى: «لا يولد الإنسان حرّاً، إنما يصبح حرّاً».

وتكلم حكيم آخر قال: «كان رجل عجوز ذو مظهر بائس يتقدم في شوارع مدينة يتسول طوال حياته، ولم يكن أحد يعيره أي انتباه. قال له أحد المارة باحتقار: «ماذا أنت فاعل هنا؟ ترى بوضوح أن

أحدا لا يعرفك».

نظر الفقير إلى عابر الطريق بهدوء وأجابته: «وما يعني ذلك؟ أنا أعرف نفسي، وهذا يكفي. والعكس يعتبر أمراً في غاية الفظاعة: أي أن يعرفني الجميع فيما أنا أجهل نفسي».

وتكلم حكيم رابع قائلاً: «معرفة الذات تتيح للمرء أن يتعلم السيطرة على نفسه. إذ ماذا ينفذ الإنسان ن يحكم العالم لم يعرف أن يكون سيد نفسه؟ يتطلب ضبط النفس معرفة وإرادة على حد سواء. فما أن يتم استطلاع العائق الداخلي حتى تصبح الوسيلة الأبسط لتحويل الذات هي إثبات عمل ذي مغزى. لنأخذ مثل رجل يخاف العتمة. فقد فهم أن هذا الخوف يعود إلى فترة طفولته الأولى، حين كان يترك في غرفته وحيداً في الليل، ووالده خارج متناول صوته. إن وعيه لإعاقة سوف يساعده على التقدم، لكن الشفاء لن يتم إلا بالجهود المبذولة للتغلب على خوفه. وهكذا سيبدأ بالبقاء للحظة قصيرة في العتمة الكاملة، معتمداً على وعيه اليوم بانتقاء الخطر. ثم يبقى كل مرة بضع دقائق متزايدة إلى أن يجعل خوفه القديم يهزأ بنفسه ويتحرر من عاهته. فالخائف بإقدامه على أعمال الشجاعة خطوة خطوة، سيغدو بالتدريج شجاعاً. والرجل الذي يعجز عن ضبط نزواته الغذائية أو الجنسية يكبح ذاته شيئاً فشيئاً، ويمسي معتدلاً قنوعاً. كما سيتعلم شخص شديد التهور ضبط نفسه تدريجياً ويصير حصيفاً. هذا وتساعد التقنيات العلاجية، كجماعات الكلام، على التخلص من مخاوفه وعاداته السيئة. إن وسائل التقدم والتحول في أيامنا الراهنة أكثر من أن تحصى. ولكن ينبغي في الحقيقة التحصن بإرادة التغيير. والحال أن بعض الرجال يطيب لهم المكوث في سجنهم الداخلي، لأنهم يخافون الحرية ولا يؤمنون أبداً بالوسائل الكفيلة بالتحول. لقد تعودوا العيش على هذا المنوال وراء قضبان أنفسهم، لذلك يبعث العالم الخارجي الخوف في قلوبهم. ويحدث أن بعض العبيد، حالما يعتقدون، يعودون إلى عبوديتهم السابقة، أو أن سجناء قدامى يبذلون قصارى جهدهم للرجوع مجدداً إلى زنزانة السجن. كذلك نصادف أشخاصاً لا يرغبون خاصة أن يصبحوا أحراراً. فردع مخاوفهم وعاداتهم السيئة تثبت الطمأنينة فيهم. ليس من حيلة ناجعة ضد هذه العبودية الإرادية إلا أن نأمل أن تمسي الحياة لهم غير محتملة، لعلهم يقررون أخيراً التحرر من سلاسلهم».

وتكلم أحد الحكماء قال: «إن العبودية الداخلية لا تتأتى فقط من نزواتنا وانفعالاتنا، بل من التعلق الشديد بالأشياء المحيطة بنا. فالتبعية للماديات هي أحد أنواع العبودية الأكثر شيوعاً في أيامنا الراهنة، لأننا لا نريد المزيد دائماً وحسب، بل نريد كذلك الأفضل دائماً، لكننا لم نعد قادرين على الاستغناء عن هذه الأشياء التي ما كان لها وجود بالأمس. لقد استطاع معظم أبناء البشر أن يحيوا سعداء، طوال آلاف السنين من دون سيارة وهاتف محمول وكهرباء، ومن دون تلفزيون وانترنت. غير أننا لنتخيل اليوم شخصاً يتوجه للعيش في مكان خال من كل هذه الأمور. سيحسبه الناس معتوهاً، ولا يرغب أحد في اقتفاء أثره. ذلك أننا تعودنا هذه الرفاهية وهذه الأشياء، بحيث تبدو لنا ضرورة لا تترانا النفسي، بل لبقاءنا على قيد الحياة. وعلى العكس، سيكون من المفيد جداً أن نتعلم التجرد منها، وأن نستعملها بحرية دون إكراه راغبين أحياناً في الانفصال عنها بملء إرادتنا.

تملأنا بعض الأشياء ولكن حذار أن تملككما. استعملنا الخيرات المادية من غير أن تصبحا عبيدين لها. هي ذي خطوة مهمة تخطوانها نحو الحرية الحقيقية».

وتحدث أحد الحكماء قائلاً: «أن يكون المرء حراً يعني أيضاً أن لا يتصرف تبعاً لاعتبار رأي الآخرين. والحال أن أفعالنا وردود أفعالنا تحركها، في أغلب الاحيان، الرغبة في نيل الرضى أو عدم نيله، وفي التكيف مع الاعراف العامة، أو على العكس في التمرد عليها، وفي لفت الانتباه أو البقاء متكتمين. إذا تصرفنا على هذا النحو، فنحن سجناء آراء الآخرين، بينما تقوم الحكمة على التحرر من هذا النظر الثقيل، المستبطن على الأغلب لدرجة أننا لا نعيه».

إليكما حكاية طفل سأل والده عن سر السعادة. فقال الوالد لابنه أن اتبعني. خرجا من البيت، وقد امتطى الأب حماره العجوز، وتقدم الابن سائراً على قدميه. اغتاض أهل القرية قائلين: «يا له من والد سييء يُجبر ابنه هكذا على السير على قدميه!».

- «أسمعت، يا بني، ما قيل؟ لنعد إلى البيت».

في الغد أجلس الوالد ابنه على متن الحمار، فيما راح هو يمشي بجانبه. هنا هتف أهل القرية: «يا له من ابن عاق، لا يحترم والده العجوز ويتركه يسير على قدميه!».

- «أسمعت، يا بني؟ لنعد إلى البيت».

في الغد، امتطيا كلاهما الحمار. حينئذ قال القرويون: «إنهما في الحقيقة عديما الشفقة حتى يحملا هذا الحيوان فوق طاقته!»

- «أسمعت، يا بني؟ لنعد إلى البيت».

في الغد، انطلقا يحملا أمتعتهما، والحمار يتعقب خطاهما، فعلق أهل القرية أكثر من ذي قبل: «ها هما الآن يحملا أمتعتهما بنفسيهما! إنه العالم بالمقلوب!» «أسمعت، يا بني؟ لنعد إلى البيت».

لدى وصولهما إلى البيت، قال الوالد لابنه: «كنت قد سألتني عن سر السعادة؟ مهما يكن العمل الذي تقوم به، فستجد دائماً من ينتقده. لذا إفعل ما تحب أو ما تعتقد أن فعله صواب، وسوف تكون سعيداً».

واستهل أحد الحكماء الكلام بقوله: «إننا جميعاً بحاجة إلى الاعتراف بنا، فنحن لا نحتمل أن نكون موضع انتقاد وشتيمة. هذه الحاجة وهذا الكره يتسلطان بشكل جائر على نفوسنا. لهذا فإننا نبحت باستمرار عن نظرة رضى، وعن ثناء ومكافأة وجائزة تكريمية، وشهرة اجتماعية أو عن صيت حسن. وعلى النقيض من ذلك، يكدر خواطرنا الانتقاد أو اللوم، وتجرحنا الشتيمة، ولو صدرت عن شخص مجهول تماماً، ونُطرح أرضاً بفعل خيبات تضر بسمعنا أو بكرامتنا. هذا التصرف الطبيعي في سن الطفولة. فالطفل يحتاج إلى التعزية والتشجيع والمكافأة على جهوده. كما من الطبيعي أن يسيء تقبل التأنيب الذي يؤخذ عليه. ولكن ما هو عادي عند الطفل ليس عادياً عند البالغ. من الضروري أخذ رأي

الأخر في الاعتبار، كما من واجب الإنسان أن يتحلى بقدر كاف من الثقة بنفسه، كي لا يهتم باستمرار بموافقة الآخرين أو انتقاداتهم. للأسف، لا يعرف كثيرون، أو لا يستطيعون التحلي بهذه الثقة، إنما يواصلون العيش كأنهم اطفال. فالثقة بالنفس وحب الذات السليم ضروريان لنمو الكائن البشري، ولحرية وسعادته».

وتكلم حكيم آخر قال: «جاء رجل يزور أحد الحكماء الأقدمين وسأله كيف يمكنه أن يكون حراً حقاً. أجابه الحكيم: «إذهب إلى المقبرة واشتم الموتى». دخل الرجل المقبرة، شتم الموتى وبصق على قبورهم. ثم عاد إلى الحكيم فسأله هذا الأخير: «هل قال لك الموتى شيئاً ما؟».

أجاب: «كلا».

قال له الحكيم: «عد إلى المقبرة وتغنّ بذكرهم».

لبي الرجل ما أمر به، ثم عاد عند الحكيم الذي قال له: «وهل قال لك الموتى شيئاً ما؟».

أجاب الرجل بالنفي.

عندها قال له الحكيم: «حسناً، إليك نصيحتي، لتكون حراً كن كالميت في وجه الاحتقار

والمديح».

وانبرى أحد الحكماء للكلام قائلاً: «ينبغي أن نتعلم التحرر ليس فقط من كل ما يحدنا ويكيفنا جسدياً ونفسياً، وكذلك من كل اشتراط عائلي أو اجتماعي ورتناه. قد يبدو هذا، يا ابني البشر، أمراً معيباً لأنكما تحترمان بالتأكيد القيم والمعتقدات والمعرفة التي نقلها إليكما أهلكما والمجتمع. إنكما على حق في ذلك، ولكن يأتي حين من الدهر، وأنتما لستم ببعيدين عنه، يتوجب فيه على البالغ أن يمحس بغربال العقل والتجربة كل ما نقل اليه لينتقن من صحته. إن البحث عن الحكمة أمر ضروري، لأن كل عائلة وكل جماعة بشرية تتقل معها معتقدات وقيماً خاصة بها، لا تخلو من أحكام مسبقة ومنحازة. بعض هذه الأحكام خاطيء، وبعضها الآخر غير ملائم لتحديات العصر الحالي، وبعضها الثالث محدود، وبعضها كذلك غير مناسب لطباع بعض الأفراد ومصيرهم.

ليكون المرء حراً حقاً ويحقق ذاته تحقيقاً كاملاً، عليه أن يبحث عن الحقيقة دون أحكام مسبقة ودون قصر نظر، وهذا ما يدفعه إلى التشكيك، بصفة بناءة، في إرثه العائلي والثقافي! في هذا الإرث نضم كذلك الدين. إذ ما الجدوى من اتباع ديانة لا نخرط فيها بكل قلبنا وكل عقلنا؟ لا بد للإنسان أن يشكك بالعقائد والأخلاق والمذاهب الموروثة من الآباء والأجداد، بشرط التوفيق بينها لاحقاً، كي يتحقق حينذاك خيار شخصي، حر وواع. لا تناموا على حقائق مكتسبة، بل تحروا دائماً عن الحقيقة، فقديماً قال أحد الحكماء: «والحقيقة ستحرركم».

وتكلم حكيم آخر قال: «تعلموا، يا ابني البشر، الانتقال من الجهل إلى المعرفة. فالجهل هو سبب معظم الشرور. نمياً ذكاءكما ومعارفكما لتتعلموا التمييز بين الأمور. إذ يطلب منكما، طوال حياتكما،

التفريق بين الحق والباطل، وبين الصواب والخطأ، وبين الإيجابي والسلبي، وبين النافع والضار، وبين الضروري والنافل. إن معرفة ذاتكما والعالم ستحرركما وتجعلكما قادرين على تحقيق الخيارات الصائبة لتعيشا حياة هانئة. ولكن تذكر أن معرفة الذات هي الأهم. لذا قال أحد قدامى المعلمين: «إعرف نفسك تعرف العالم والآلهة».

وتكلم أحد الحكماء قائلاً: «جلس رجل عجوز عند باب مدينة. فاقترب منه شخص غريب وسأله: «لم أت قط إلى هذه المدينة، بالله قل لي كيف هم الناس الذين يعيشون فيها؟».

أجابه العجوز بطرح سؤال عليه: «كيف كان سكان المدينة التي قدمت منها؟».

قال الغريب: «كانوا أنانيين أشراراً. وهذا ما دفعني إلى مغادرتها».

رد العجوز بقوله: «سوف تجد الأشخاص أنفسهم ههنا».

بعد قليل اقترب من العجوز غريب آخر وسأله قائلاً: «لقد وصلت لتوي هنا، بالله قل لي كيف هم الناس الذين يعيشون في هذه المدينة؟».

أجاب العجوز قائلاً: «قل لي، يا صاحبي، كيف كان أهل المدينة التي وافيت منها؟».

- كانوا طيبين ومحبيين للضيف، وكان لي فيها أصدقاء كثير، وقد شقَّ علي مفارقتهم. - رد

العجوز: «سوف تجد الأشخاص أنفسهم ههنا».

كيف استطاع العجوز أن يرد على السؤال ذاته بإجابتين متناقضتين؟ لأن كل امرؤٍ يحمل في قلبه عالمه. إذ لن يرى أبداً أخوان، أو صديقان، أو زوجان العالم بطريقة متماثلة، حتى لو شاطروا الحياة اليومية ذاتها».

أخيراً تحدث حكيم قال: «إن العالم الذي نجبل فيه أنظرنا ليس العالم نفسه، لكنه العالم الذي نحس به على غير حقيقته من خلال أحاسيسنا وانفعالاتنا وعقلنا وثقافتنا. فإن تراءى لك العالم حزيناً أو معادياً، فما عليك إلا أن تغير نظرتك ليظهر لك في صورة مختلفة. أننا نستطيع حقاً، بفضل جهدٍ داخلي نفسي وروحي، أن نغير ونطور إحساسنا بالعالم الخارجي».

حين توارت الشمس عن الأنظار مختفية وراء الجبل الأبيض، لزم الحكماء الصمت. ثم توجه كل منهم بهدوء للاهتمام بأشغاله خلال الساعات القليلة، التي كانت تفصله عن وجبة المساء. جاء المعلم كونغ ويده الهاتف، يزور الشيخ يوسف الذي كان يرتاح في صومعته، قائلاً له: «إن زوجتك التي طلبتها قبل بضعة أيام، حاولت الاتصال بك أكثر من مرة. أعتقد أن من واجبك أن تطلبها ثانية» ترك الصيني العجوز هاتفه للنيجيري وقصد غرفة الطعام لتناول الوجبة المشتركة. بعد حوالي عشر دقائق، انضم إليه الصوفي. كان يسير مترنحاً كأنه ملاكم تعرض لضربة قاضية، وقال: «إن ابنتي الصغيرة تصارع الموت» ثم انهار على الأرض، متوسلاً بين شهيقٍ وزفيرٍ إلى الله قائلاً: «اللهم، أنت خالق الحياة. لقد قررت أن تسترد حياة صغيرتي ليلي. أعلم أنك ستعنى بنفس طفلي، لكن امنحنا القوة

لي ولزوجتي كي نصبر على هذا الفراق!» ثم بكى بدموع حرّى. استولت الشفقة على الحكماء جميعاً لدى رؤية هذا المارد وقد أعياه الحزن. فنهضت ماأنندا وطوقته بذراعيها، وهددته كأنها أم تلاطف شعره. عندما هدأ نحيب الشيخ، سأله الحاخام شلومو: «مَمَ كانت تشكو طفلتك؟» إنها بالضبط في الشهر الثاني من عمرها، وقد أصابتها حمى شديدة، لم ينفع في شفائها أي علاج. دخلت الآن في الغيبوبة، وقال الطبيب إنه ما بقي لها من الحياة سوى بضع ساعات. حتى إني لم أسمع مناغاتها العذبة لمرة أخيرة».

نهضت الشامانة أنسيا وغادرت الغرفة. ثم عادت بطبها وباشرت الرقص على صوت الآلة المكتوم والمتقطع. تجمدت نظرتها واتجهت نحو العملاق الجالس على الأرض، والمحاط بذراعيّ ماأنندا. أمسكت بيديه الاثنيتين، فعبرت جسم الصوفي قوة، خيل إليه أن تياراً كهربائياً سيسنقر داخل نفسه. كانت الشامانة تتحدث بصوت غريب مختلف عن الصوت الذي اعتادوه لها. كان هذا الصوت أشد قوة ورسانة، وهي تتكلم بلغتها الاصلية، وتبدو أنها تخاطب أرواحاً غير مرئية. ثم توسطت الغرفة وعاودت الرقص بطريقة إيقاعية متنامية. وقامت كذلك بحركات واسعة كأنها تحاول إبعاد شيء غامض عنها. دام الرقص ساعة على الأقل؛ كانوا جميعاً مشدودين إلى صوت الشامانة وحركاتها، ولم يشعر أحدٌ بمضي الزمن. وفجأة صرخت أنسيا بنبرة مدوية حتى إن العديد من الحكماء أصابهم الذعر. ظلت متجمدة قليلاً، ثم انهارت على الأرض كجثة هامدة. هرع الأب بيدرو وغابرييلا صوبها، إلا أن الشامانة ما لبثت أن استعادت حواسها. وقالت بصوت عذب يتعارض مع الصوت الذي كان لها أثناء الغشبية: «كل شيء الآن على ما يرام. لقد فارق المرض جسم الطفلة الصغيرة. وإني محتاجة الآن للراحة فعلاً، ثم غادرت الغرفة ملتحقة بصومعتها، فيما كان الحكماء تحت وطأة الذهول.

رن هانف المعلم كونغ المحمول. أخبرته زوجة الشيخ يوسف أن ليلي خرجت من طور الغيبوبة وأن الحمى زاولتها. ارتمى الصوفي على الأرض مكبا على وجهه وشكر السماء ذارفاً دموعاً حرّى. همست ناتينا لأمها: عليه بالأحرى أن يشكر أنسيا!» أجابتها غابرييلا: «لا يهم من يشكر. لقد اتصلت الشامانة بروح العالم التي شفت الصغيرة. أما روح العالم، بالنسبة إلى صديقنا، فهي تجلي الله في الكون. أن نشكر الله، القوة العجيبة التي تحرك العالم، أو أن نشكر الشامانة التي كانت أداة هذه القوة، فالأمر سيان. لنبتهج أن ليلي على قيد الحياة!».

هز هذا الحدث المذهل قلوب الجميع، فالتحقوا بغرفهم وحاولوا النوم. في صباح الغد تواجدوا بفرح، وبخاصة أن المعلم كونغ قد تلقى للتو اتصالاً جديداً من أفريقيبا يؤكد تعافي الطفلة الصغيرة. ضم الشيخ يوسف أنسيا إلى صدره طويلاً، وقد بدت الطفلة أنها شفيت تماماً من جراء تداعيات طقوس البارحة المنهكة. ثم عاد الحكماء إلى أمكنتهم في الشرفة. وكان للصمت الذي استبق هذا اليوم الرابع من التعليم أريج الفرح والعذوبة.

اليوم الرابع-ع إفتح قلبك أو عن الحب

تكلم أحد الحكماء قال: «اسمعا، يا ابنيّ البشر، التعليم النبيل الرابع حول الحب. الحب طاقة عظيمة، أعظم الطاقات المتوافرة التي تشمل الكون بأسره. الحب ينبع من روح العالم، ويجمع أجزاء الكل. الحب يتيح تجاوز الذات، ومصالحة الكائنات الأنانية لكي يصل بين بعضها وبعض. الحب يتجلى في ألف شكل وشكل، ولكن تسمع دائماً، عبر هذه المظاهر، موسيقى الارتباط والهبة نفسها».

وتحدث حكيم قائلاً: «إن البشر مدفوعون بطبيعة الحال لملاحقة مصالحهم الخاصة. فيتردد الحب فيهم كأنه عطش ونداء عميقان، لكن هذين الأخيرين يمكن أن تخنقهما قوة ذاتهم. هذه الذات تريد الأخذ والتسلط، فيما الحب سيعلمها أن في العطاء والخدمة مزيداً من السعادة.

وتقوه أحد الحكماء قال: «التربية ضرورية ليتعلم المرء تجاوز طغيان الذات، وأخذ الآخر بعين الاعتبار. وأساس كل تربية لمواجهة الحياة في المجتمع يختصر بالعبارة الآتية: «لا تفعل لغيرك ما لا تريد أن يفعله لك. «هذه القاعدة الذهبية، الماثلة في كل ثقافات العالم تنبني على الأنانية لجعل الجميع يدركون ضرورة الغيرية. «هل أنت تريد أن تُقصف حياتك؟ لا تقصف حياة قريبك. هل أنت تريد أن تُسلب ممتلكاتك؟ لا تسلب ممتلكات الآخرين. هل أنت تتمنى أن يكذبوا عليك ويشتموك؟ لا تكذب ولا تشتمهم. فالقوانين والديساتير الأكثر قدماً مبنية على هذه القاعدة الذهبية. إلا أن الاخلاق والقوانين، مهما بدت ضرورية لحياة المجتمع ليست الحب، لأن الحب لا يمارس بالقوة! والناس يحترمون القانون الأخلاقي بدافع الحكمة والعقل والطاعة أو بدافع الخوف، إنما ليس بدافع الحب. وبيتهج الحب بالقانون الضروري لحياة الناس العامة، لكن لا يوحى به، ويطلب الحب المزيد وشيئاً آخر غير ما يطلبه القانون. يطلب الحب انخراطاً عميقاً، ويجلب ميله إلى الآخر الفرح والسعادة. لهذا فالأخلاق هي قانون العقل، والحب هو قانون القلب».

واستهل حكيم الكلام بقوله: «إن ميل القلب هذا الذي يحثنا على الحب والارتباط بالآخر، يتخذ مظاهر عدة. فهناك حب الأم لولدها وحب الولد لأمه. وهناك حب الأب لولده وحب الولد لأبيه. وهناك حب الأخوة والأخوات الذين نشأوا تحت سقف واحد. وهناك حب الأصدقاء الذين يختار واحد منهم الآخر بحرية تامة، فيتبادلون حب الصداقة. وهناك حب العشاق الذين يشتهي واحد منهم الآخر بقوة فيتبادلان

الحب بشغف شديد. وهناك حب الزوجين اللذين اختارا بناء حياتهما سوياً. وهناك حب المعلم لتلميذه وحب التلميذ لمعلمه الذي يعلمه العيش والنماء. وهناك أيضاً الحب الذي نشعر به تجاه الحيوانات القريبة منا، وحب الأرض والعالم».

وانبرى أحد الحكماء قائلاً: «في وسع كل أنواع هذا الحب أن تشرح قلوبنا، وتسمو بنا وتهز مشاعرنا. ويفهمنا الحب أنه ليس بوسعنا أن نكون سعداء بمعزل عن الآخرين. والحب يوحى إلينا أننا مقيمون على الأرض للتواصل، وأن تجاوز ذاتنا هو مصدر فرح وبهجة لنا».

وتكلم حكيم آخر قال: «إلا أن الحب يستدعي كذلك العديد من الشراك، ويمكنه أن يسبب الكثير من الجراح. فالعلاقة التي نقيمها مع والدينا ونحن أطفال تتسم بالحزم، إذ إنها تكيف لاحقاً طريقة حبنا. فإذا أحبونا بصفة مفرطة أو حيازية، انتابنا الخوف من أن يفترسنا الآخرون. ونخشى في كل علاقة غرامية فقدان حريتنا. وعلى العكس، إذا أسىء حبنا أو إذا لم يعثر والدونا على الكلمات والحركات الصائبة للإعراب عن حبهم لنا، عندئذ سوف نفتقر إلى الثقة بأنفسنا وبالآخرين، ونتخوف دوماً من التعرض للرفض والهجر، ويشق علينا الارتباط برباط الزواج. إننا، في علاقتنا الحبية، نعاود نسخ التكيف العاطفي في طفولتنا الأولى. ومن الممكن أن نشقى من جراحنا القلبية هذه على مر الحياة بواسطة الوعي والمعالجات والمقابلات المتخصصة. إذ لا بد من شفاء القلب عند العديد من البشر، كي يتمكنوا من أن يعيشوا علاقات حبية متناغمة. ولكن إن لم نحب ذاتنا، ولم نكتشف بطريقة سليمة أننا جديرون بالحب، فإننا سنجد صعوبة في الحب بطريقة سليمة أيضاً، وسيحوّل جرح قلبنا وجهة حبنا، بحيث نحب بصورة حيازية جداً، أو بطريقة لامبالية قلقة أو سطحية للغاية، لا بل منحرفة، فيما لو كان الجرح بليغاً وغير واع».

وتكلم أحد الحكماء قال: «هناك إذاً العديد من الشراك ينصب في وجه الحب. لذا فإن معرفة الذات لا غنى عنها لتتعلم الحب بطريقة حرة وغير مشروطة، وبصورة سلسلة صحيحة. كما يتوجب علينا أن نتعرف إلى وجوه الحب المتعددة وعدم ردها إلى وجه واحد لا غير: وجه الحب الشهواني. فكثير من الناس يدمجون الحب بالشهوة، وبالرغبة الجامحة بالآخر، وبالفرح التلقائي الذي يصاحب نشوء الشعور الحبي. والحال أن الشهوة الغرامية هي في الغالب مضللة. إذ تُسقط على الآخر توقعاتنا، ونعثر فيها بصورة لاواعية على طاقة تذكّرنا بالطاقة، الحسنة أو السيئة، لأحد والدينا. وفي أغلب الأحيان، سوف نسبغ الكمال المثالي على الآخر ونزينا به بخصال هو خلو منها. كما أن الشهوة - وهذا ما يجعلها جامحة ولذيذة - تركز على الرغبة الجنسية. والحال أن هذه الرغبة يمكن أن تضعف على مر الزمن. وحين يقل الفرح، وتتقلص الرغبة الجنسية، وتفتر الشهوة، يصبح أشد وعياً بما هو الآخر في الحقيقة، يظن الكثيرون أن الحب قد تلاشى، إذا لم تكن هذه العلاقة مستندة طبعاً إلا إلى الرغبة والشهوة. ولكن ما شأن الصداقة التي بإمكانها أن تربط كذلك العاشقين؟ وماذا عن الحنان العميق الذي قد يتنامى بين كائنين على مر الزمن الذي يقضيانه معاً، وعن التجارب المتبادلة فيما بينهما؟ ماذا عن حب الآخر هذا باعتبار ما هو بحد ذاته، وليس فقط باعتبار ما يحمله لي، والذي يمكن أن يتنامى أيضاً

مع الوقت؟ لا ريب أن أنواعاً عدة من الحب يمكنها أن تتعايش، ومن المجدي أن نتعرف إليها لننتج للعلاقة أن تتطور بشكل صحيح ومتناغم».

وتحدث أحد الحكماء قائلاً: «في حياة الحب، يصلح بعض الناس للتواصل بالحب مع اشخاص عديدين. في حين يركز آخرون، طوال وجودهم، على السعي وراء حب وحيد، باذلين كل جهودهم. وهذا ما تعلمه من نملة بسيطة عاهل عظيم كانت له نساء ومحظيات كثيرات. فبينما كان، ذات يوم، يسير في دروب الصحراء، طالعه وكر للنمل. وافت جميع النمل تُحْيِي آثار خطاه، إلا نملة واحدة لم تكثر لحضوره، بل ظلت منشغلة في الظاهر بعمل لا نهاية له. لمحها الملك فانحنى على جسمها الصغير جداً قائلاً: «ماذا أنت فاعلة إذاً، أيتها البهيمة الصغيرة؟».

أجابته النملة دون أن تسمح لنفسها أن يصرفها عن عملها: «أنظر، أيها العاهل العظيم، أنا أنقل هذه الكومة من الرمل حبة حبة».

- ألا يشكل هذا عملاً يفوق طاقاتك الضعيفة؟ إن هذه الكومة من الرمل تتجاوزك بدرجات كبيرة للغاية بحيث لن تتمكن عيناك من رؤية قمتها.

- أيها العاهل العظيم، إنني من أجل حب حبيبتني أعمل. وهذا العائق يفصلني عنها. ولكن لا شيء بوسعها أن يصرفني عن هذا العمل. وإن كنت استخدم كل قواي لتحقيقه، فسأموت على الأقل غارقة في جنون الأمل السعيد».

هكذا تكلمت النملة العاشقة. وهكذا استطاع الملك أن يكتشف، على دروب الصحراء، نار الحب العظيم.

وباشر أحد الحكماء الكلام بقوله: «إنه لخطأ شائع أن يُردّ الحب إلى أوجه العلاقة القائمة بين الوالد والطفل، أو بين الزوج وزوجته أو إلى علاقة الصداقة. يعبر الحب في الواقع عن نفسه من خلال هذه الطرق المختلفة. إلا أن بإمكانه أن يتخذ أشكالاً أخرى عديدة. كما بوسع مشهد طبيعي أو عمل فني رائع أن يفتح قلبنا لأبعاد واسعة وعلاقة غرامية. فقلبنا ما أن يتجاوب مع اهتزاز روح العالم، حتى تتحرك مشاعره لشيء تافه لا يعتدّ به: لابتسامة، لزهرة تتفتح، لغيمة شاردة في السماء، لنظرة إنسان غريب التقينا في الشارع. والحب يحس بالشفقة تجاه كل كائن حي. ويستتكر بقوة كل شكل من أشكال الوحشية، ليس تجاه البشر فحسب، بل تجاه الحيوانات كذلك، أيًا كانت الأسباب. إنه يحب العالم والكون والحياة».

وتكلم حكيم آخر قال: «عندما يتجذر هذا الحب في قلوبنا، يحول طريقة كياننا وعيشنا. حينذاك لا وجود لغريب ولا لبعيد، بل كل كائن حي قريب منا، وكل ألم يخلصنا، وكل كائن هو صديقنا وأهلنا وولدنا».

وتكلم أحد الحكماء قائلاً: «سأل معلم تلاميذه: كيف السبيل إلى معرفة اللحظة التي ينتهي عندها

الليل واللحظة التي يطلع فيها النهار؟».

أجاب أحد التلاميذ: «عندما يمكن تمييز الكلب من الذئب».

قال المعلم: «ليس هذا هو الجواب».

اقترح عليه تلميذ آخر: «عندما يمكن تمييز شجرة التين من شجرة الزيتون».

- قال المعلم: «ليس هذا هو الجواب أيضاً».

عندئذ سأل التلاميذ كلهم معاً: «كيف إذا؟».

أجاب المعلم: «حين نرى شخصاً غريباً، نتعرف فيه أحياناً، حينئذ يطلع النهار وينتهي الليل».

وتكلم حكيم قال: «ليس لهذا الحب بداية ولا نهاية. فهو عديم الخوف وبلا حدود ومن دون توقعات. إنه يعطي ويتلقى من غير أن يتذمر أبداً ولا يطالب أبداً. ولا يعود من وجود لل «أنا» ولا لل «الآخرين»، إنما ثمة وجود لل «نحن». كما لا يعود ثمة وجود لرجل أو لامرأة، ولا وجود لغني أو فقير، ولا لأميركيين أو لصينيين، ولا لبوذيين ومسلمين، كما لا وجود لشرق أو لغرب، ولا لضعفاء أو أقوياء، ولا لصالحين أو خطاة، ولا لطاهرين أو نجسين. ليس هناك سوى كأس الحب التي تحوي كل شيء وكل الناس».

واستهل أحد الحكماء الكلام بقوله: «لا يرد الحب الضربة بالضربة، ولا العين بالعين أو السن بالسن، بل إن الحب يعلمنا أن نصفح بدل أن ننتقم، وأن نعزي بدل أن نُعزّي، وأن نقاسم عوض أن نكدس، وأن نعطي عوض أن نتلقى، وأن نتقهم عوض أن ندين. كذلك يعلمنا الحب أن نصلح الخطأ ونربي، ونعامل بالعدل ونتقبل، ونقبل التعزية والدعم. الحب عملية تبادل مستدامة بيننا وبين العالم، تبادل يجعل القلب مشرّعا على مصراعيه».

تحدث أخيراً حكيم قال: «الحب يصلنا دون أن يقيدنا. والحب يلزمنا دون أن يسجننا. والحب يهزنا دون أن يخيفنا. والحب يبكيها دون أن يغلق قلوبنا. والحب يشوقنا دون أن نمتلك. والحب يربطنا ويجعلنا أحراراً. والحب يثبّتنا ويشرّعنا على الكون بأجمعه».

كان تتزين وناتينا آخر من غادر شرفة الدير. شعر الراهب الفتى عند صديقه شيئاً من الاضطراب على مر النهار. فسألها حالما ذهب الحكماء: «هل أنت بخير؟ أجابت ناتينا بتكشيرة، ثم نهضت متممة: «يتراءى لي أنني لن أوفق أبداً في حفظ كل هذا ولا بالأحرى في تطبيقه! جميلة للغاية الحكمة، ولكنني قد أكون مهياًة لعمل آخر».

- ماذا تقصدين بقولك هذا؟

- لا أربغ في الحديث عنه. إنك لن تفهمه.

- بل بالعكس، لنتحدث عنه. باستطاعتي أن أفهم تمام الفهم ما تشعرين به، يا ناتينا. نهضت

الفتاة بعزم قوي وقالت: «ولكن لا، لا يمكنك أن تفهم! أنت تعيش كراهب منذ نعومة أظفارك، وقد نشأت على حب الكون، وحرية الفكر، والحكمة الشاملة. أما أنا فأحلم بلقاء فارس الأحلام، وأماح صديقاتي وأتلاً في الحياة! هذه أمنيتي! إذاً إن كان بميسورك أن تفهم هذا».

لزم تنزين الصمت لبضع لحظات، ثم توجه نحو ناتينا محاولاً الإمساك بيدها. لكن الفتاة سرعان ما سحبتها وأشاحت بوجهها تمسح دموعها. لم يمتعض تنزين لذلك بل واصل كلامه:

«أنت تعلمين، يا ناتينا، أني لم أختَر هذه الحياة وسط الرهبان. وإنما انتزعتُ من بين أسرتي انتزاعاً، وأنا في الثانية من عمري، ولم أعرف شيئاً آخر إلا هذا الدير. وكان الراهب دورجه بمثابة أم لي، لكنه لم يحلّ بالتأكيد محل ذراعي أم حقيقية وحنانها. صحيح أحياناً أني أرغب بالإمعان في التسلية، واللعب بكرة القدم أو العزف على القيثارة أسوة بأندادي الصبيان. أشياء كثيرة أفقدها هنا. إلا أني أظن أن الحظ أسعفني جداً لكوني في هذا المكان، وتلقي هذا التعليم، وتمكني في صغر سني من استيعاب أن الحياة لا تنسم باللامعقولية، إنما هي ذات مغزى عميق، ومن الأهمية بمكان عدم الاستهانة بهذه الهبة الثمينة التي هي الوجود البشري. لعلي سافأرق يوماً هذا الدير. ولعلي سأحيا كما يحيا جميع الناس، وأتزوج وأرزق أولاداً. غير أني أكون، على الأقل، قد تعلمت كل هذه الأمور. وعندما يوافيني الأجل، لن أستطيع القول إنني لم أكن أعلم، وربما قد تكون أشياء كثيرة تعلمتها ههنا مفيدة لي، حين أصبح موزع رسائل بريدية أو سمكريا في ضواحي لندن أو بكين».

انفجرت ناتينا ضاحكة: «لا تتقوه بكلام فارغ، فأنت لست شيئاً بأصابعك العشر. من الأفضل لك أن تصبح راهباً» ثم توجهت نحو الصبي وضمته بين ذراعيها.

«أحبك، يا تنزين، ولكن بأي نوع من الحب؟ لست أدري. أنت أروع كائن أتيح لي لقاءه أبداً».

أجابها الراهب الفتى وهو على وشك البكاء: «أنا أيضاً أحبك، يا ناتينا. ستظلين دائماً في قلبي».

بقي المراهقان في وضعية العناق مطولاً، ثم انسحبا بهدوء. وطبعت ناتينا قبلة خاطفة على وجنة تنزين، عند مقرن الشفتين بالضبط، وخرجت راکضة. وصلت إلى الغرفة التي كانت تتقاسمها مع أمها وانفجرت باكية دموعاً عذبة حرياً.

رأت غابرييلا ابنتها منهوكة القوى، فاقترحت عليها أن تمشي خارج الدير، لكن الفتاة رفضت اقتراحها. «هل أنت راغبة في العودة ولقاء أصدقائك، يا حبيبتي؟». ردت ناتينا موافقة، فيما لم تنبس غابرييلا بكلمة. وإذا بفكرة عنت ببالها. فقالت لابنتها وهي تنهض برفق: «انتظريني ههنا»، ثم غادرت الغرفة، وعادت بعد عشر دقائق بصحبة المعلم كونغ الذي كان ممسكاً بيده هاتفه الإلكتروني وحاسوبه المحمول. قال الصيني العجوز بقهقهة مبتهجة: «لنر أن كان لك اصدقاء جدد على جهاز التواصل الاجتماعي!».

استعادت نائينا، هذه الليلة، هدوءها، بينما جفا الرقاد عيني تنزين إذ كان قلبه يخفق قوياً، غير أنه كان سعيداً.

اليوم الخامس حديقة النفس حسنة تجب تنميتها وسموم يجب طرحها

في صباح اليوم الخامس، وبينما كانت الشمس تصعد فوق الجبل الأبيض، تكلم أحد الحكماء قال: «إسمعا، يا ابني البشر، التعليم النبيل الخامس حول الحسنات التي تجب تنميتها والسموم التي يجب طرحها لبلوغ الحكمة الحقيقية وسكينة القلب. إن قلب الإنسان وعقله منسوجان بحسنات ومعائب، وبعادات حسنة وسيئة، وبفضائل ونقائص في بعض الأحيان. لذا لا بد أن يتعلم تمييز ما هو صالح له وطالح. غير أنه لا يكفي أن يقوم بهذا التمييز فحسب، بل عليه أن يستعين بذكائه وإرادته، ويستخدم كل الوسائل الكفيلة بتنمية ما يجعله أفضل خلقاً وأرفع قدراً، كما عليه أن يزيل ما يحط من شأنه ويعمي تفكيره. هو وحده يستطيع القيام بهذا التمييز وبهذا الخيار اللذين سيكيفان حياته برمتها.

وتحدث حكيمٌ قال: «توجه حكيم عجوز، ذات مساء، إلى حفيده بهذه العبارات: «يا بني، في داخل كل منا صراع بين ذنبيين: أحدهما سيء والآخر صالح. فكّر الحفيد ملياً بالأمر لبضع لحظات، ثم سأل جده: «أي الذنبيين ستكتب له الغلبة؟ -- الذنب الذي تُعنى بتغذيته».

وباشر حكيمٌ كلامه قائلاً: «غذّ ما فيك من صلاح وعدل ونور. وجوّع ما بداخلك من سييء وسالب ومظلم. إننا بممارسة الفضيلة نغدو فاضلين، وبتنمية ميولنا الفاسدة نُمسي فاسدين. وكلما تقدمنا في السن يصبح من الصعب تحويل ذواتنا، وإزالة السموم التي تدمرنا، أو تطوير الصفات الغافية فينا. لهذا لا نتقاعسا يا ابني البشر، بل اهتمنا منذ الآن، وفي كل يوم، بحديقة نفسكما. أروياها وتعهداها بالعناية، وانزعا الأعشاب الضارة قبل أن تجتاح كل شيء. وتنبها لإنماء البذور الجيدة، مهما تكن صغيرة. وأظها طول أناةٍ ومثابرة، واما قريب تجنيان الثمار».

واستهل حكيم آخر الكلام بقوله: «نمّيّا فيكما الدهشة. لا تكفا أبداً عن تأمل جمال العالم وانسجامه وطيبته. لا تكفا أبداً كأنكما ولدان دائماً الفضول والاطلاع على كل شيء، أن تسائلا أنفسكما. فقد قال أحد معلمي الحكمة القدامى: «الدهشة هي أول الحكمة»، لأنها تقودنا إلى التساؤل وإلى اكتشاف غير المرئي الرابض وراء الأشياء المرئية. إنها تقضي بنا إلى الحقيقة، وتنقلنا حتى روح العالم. وعلى العكس، تجنباً اللامبالاة بأنفسكما وبالآخرين وبالعالم. تحاشيا فقدان الحس ولا تكونا أبداً مشمئزتين،

مكتفين بأنفسكما وشباعاً. عندها سيستسلم ذهنكما للخمول، ويكتفي ببعض مظاهر اليقين ولن يعود يسائل العالم. إنه سيصبح أشبه بأرومة شجرة قديمة لا يسري فيها نسغ، وستصبح حياتكما عديمة المذاق، عديمة الذكاء وعديمة البهجة».

وتكلم أحد الحكماء قال: «ابذلا جهدكما، واعملا دون توقف لتحسين حالكما وتحقيق شيء ما يحوّل كيانتكما نحو الأفضل. اشتغلا لأجلكما ولأجل الآخرين والعالم. أبدعا، تصرفا، ولا تدعا يوماً يمر دون إنجاز أيسر المهام، ولو كانت مجرد مهمة داخلية. وإياكما والكسل! أجل الراحة ضرورية بعد القيام بنشاط لكن الكسل لا علاقة له بالراحة: إنه الغاء للقوة والتحفز، ورفض لبذل الجهد الذي يوهم بالهناء والراحة. يا للكذب! يحتاج جسدنا ونفسنا إلى النشاط والعمل والفعالية لينمو ويزدهر. بينما يتعبنا الكسل أكثر مما يريحنا. إنه يثقل كواهلنا ويفسدنا، بيد أنه يمكننا أحياناً، من دون العمل والجهد والتفكير والنشاط، أن نعود ببعض الفائدة، ولكن ليس على ذواتنا إطلاقاً. لقد توقفنا عن النمو والازدهار، وصبرنا على انحطاط كيانتنا، بالرغم من أننا ما زلنا على قيد الحياة ننتظر الموت من غير أن نتمناه».

وتكلم حكيم قائلاً: «نميا فيكما اللطف. كونا لطيفين رقيقين تجاه أنفسكما وتجاه الآخرين. فسلام القلب وسلام العالم هما من ثمار اللطف. لا تردا على العنف بالعنف، ولا على الشتيمة بالشتيمة، ولا على الغضب بالغضب. فالغضب يفضي إلى تدمير الذات والعالم. من حقكما أن تعبرا أحياناً عن غضبكما، ولكن تعلمنا السيطرة عليه ووضع حد له في اللحظة المناسبة. لا تتيحا الفرصة له ليتسلط عليكم، إذ إنه يقودكما إلى ارتكاب أفعال سوف تتدمان عليها بألم ومرارة».

وتحدث أحد الحكماء قائلاً: «نميا المزاج الحسن والمرح وحس الفكاهة! فليس اسوأ من رجل دون حس فكاهة، لا يرى في الوجود إلا الجد والمأسوي أو النافع. لا يفيد حس الفكاهة شيئاً، ولكن لا شيء يمكنه الاستغناء عنه من أجل تأمين حياة سعيدة. لا يرفض حس الفكاهة المأسوي لكنه يصرفه عن مجراه، ويؤدي إلى تراجع الألم، وبمقدوره أن يحول الدموع إلى ابتسامة. حاولا أن تضحكا، كل يوم بادئين بأنفسكما! فالمزاج الحسن والمرح يلقيان نظرة إيجابية على الحياة، ويسمحان لنا بمواجهة الأحداث الطارئة الصعبة بحزم أشد».

وبّخت أم طفلها قائلة: «اسمع جيداً، إذا كنت عاقلاً تذهب إلى السماء، وإن لم تكن عاقلاً تذهب إلى جهنم».

فكر الصبي لبضع ثوان، ثم قال: «وماذا علي أن أفعل لأذهب إلى السيرك؟».

وباشر حكيم الكلام بقوله: «نميا الإيمان والثقة بالنفس، فهما العكازتان اللتان ترتكزان عليهما للمضي قدماً في دروب الحياة. لولا الإيمان وثقة الطفل بأمه لما أقدم على المجازفة بنفسه إطلاقاً، ولما استطاع أن يعلي قدره في عيني ذاته، ولما عرف كيف يواجه تحديات العالم. بميسورنا، عند بلوغ سن الرشد، أن نعتبر روح العالم أمناً. فهي تسهر علينا بعناية فائقة وتهبنا القوة للتقدم. لنضع إيماننا فيها، ولنثق بالحياة. ولنخاطر بأنفسنا من أجل المعرفة والتقدم والتغيير. تقودنا الحياة نحو الأفضل على

الدوام. فلنطرد من ساحة تفكيرنا الاضطراب الذي يشله ويحول دون نمونا. لنطرد أيضاً الفلق الذي ينهش أنفسنا. ولنطرد كذلك الشك الذي يجعلنا عاجزين عن الثقة بقدراتنا، كما يجعلنا عاجزين عن الاعتماد على الآخرين والأخذ بالأيدي الممدودة إلينا، هذا الشك الذي يدمر الايمان العفوي الذي يدين به كل طفل للحياة، الإيمان هبة لا تقدر بثمن.

واستهل أحد الحكماء الكلام قائلاً: «نميا أيضاً الكرم. كونا كريمين تجاه الحياة تكن الحياة كريمة تجاهكم. وقدما قال أحد معلمي الحكمة: «هنالك مزيد من الفرح في العطاء منه في الأخذ». هيا اكتشفا هذا القانون العميق للقلب البشري، وقوامه أنكما كلما ازددتما انفتاحاً وكرماً، ازددتما سعادة. وعلى العكس، إن كنتما حقيرين وبخيلين وأنانيين، فسوف ينغلق قلبكما، ولن تحمل إليكما ممتلكاتكما وثرواتكما أي سعادة عميقة، وأي فرح حقيقي».

وتكلم أحد الحكماء قائلاً: «نميا الشجاعة والقوة، وتعلما تجاوز مخاوفكما، واجهاها وستتعلمان التغلب عليها شيئاً فشيئاً. بعض هذه المخاوف ستزول كلياً، وبعضها الآخر سيظل قائماً، لكنه لن يشلكما أبداً، وهكذا سوف تكتشفان أنكما أقوى منه».

وتقوه حكيمٌ آخر قائلاً: «نميا فيكما العطف والطيبة. ففي قلب كل إنسان قوى خيرة دفينية، إبعثها من سباتها! وشاهدا ما أشد قوتها! الطيبة تحوّل كلّ مرارة إلى عذوبة وكلّ ظلام إلى نور. إليكما حكاية رجل عميق التدين ومومس يعيشان في الشارع نفسه. لا ينفك الرجل يصلي، ويحيا حياة تقية متقشفة ويعلم طريق الرب. إنه على يقين من إنه قديس. جاء ذات يوم يعظ المومس التي تبيع جسدها لتبقى على قيد الحياة، قائلاً لها: «أنت خاطئة كبيرة، وينتظرك مصير رهيب. «توسلت المرأة المسكينة إلى الله أن يغفر لها خطاياها، ولكن كان عليها الاستمرار في ممارسة مهنتها، فهي لا تملك وسيلة أخرى للعيش. توفي الرجل المتدين والمومس في اليوم ذاته. أتت الملائكة تبحث عن المرأة لتنتقلها إلى السماء، في حين طالبت الشياطين بروح المتدين. عندها صاح الرجل: «لماذا، ألم أعش حياتي بقداسة واعظاً جميع الناس بسلوك الطريق المؤدية إلى الله؟ لماذا علي الذهاب إلى الجحيم، بينما هذه المرأة السيئة السلوك مقتادة إلى السماء؟

أجابت الشياطين: «لأن هذه المرأة المسكينة عندما كانت مضطرة إلى ممارسة أفعال سلبية، كان عقلها متجهاً دوماً إلى الله. أما أنت فعندما كنت تؤدي واجباتك الدينية، كان عقلك متجهاً دوماً إلى معاييب بني جنسك ونقائصهم. أنت كنت مهووساً بالخطيئة، لا بد أن تذهب الآن إلى حيث لا وجود إلا للخطيئة».

وتكلم أحد الحكماء قال: «نميا روح الحق طاردين ظلمات الجهل بالبحث الصادق عما هو حق. لا تكذبا، لأن الكذب هو أحد سموم النفس الرئيسية، الذي يدمر فيكما معنى الحق، ويشوه كل علاقة ويمنعكما من التقدم. غير أن الحب يدفعكما أحياناً إلى السكوت عن حقائق أليمة بوسعها أن تجرح الآخرين. ولكن إحذرا التذرع بهذه الحجة للعيش في الكذب، أو للإفراط في حماية أشخاص يفضلون

معرفة الحقيقة عن حال صحتهم، أو عن حادث خيانة زوجية، أو عن حالة غرامية مثلاً. لا تخافا الحقيقة ولو آلمتكما أحياناً. سنقودكما الحقيقة إلى بلدان مجهولة وإلى آفاق جديدة. يجب أن تتخليا عن رءاء عاداتكما الفكرية وأحكامكما اليقينية، إذ إن الحقيقة ستحرر عقلكما من كل أشكال العبودية».

وتحدث حكيم قال: «نميا المرونة، فالحياة في سيرورة دائمة. والمرونة تسمح لكما بالتكيف مع حركة الحياة. وتسمح لكما أيضاً بالاستجابة بدقة وإحكام لحدث غير متوقع، ولموقف يتبناه الآخرون قد يفاجئكما. كونا مرنين كالقصب التي تجيد الانحناء عند اشتداد الريح، ولكنها تأبى الانكسار. وعلى العكس من ذلك، يجعلكما التصلب قاصرين عن مجازاة مدّ الحياة. إنه يثبتكما في مواقف ومبادئ قد تتكشف أنها غير ملائمة للظروف ولتطور كيانكما».

وتحدث حكيم آخر قائلاً: «نميا العدالة، تلك الفضيلة الفائقة التي لا قيمة لأي شيء بمعزل عنها. إذ ما قيمة شجاعة يتحلى بها طاغية؟ العدالة هي مرتكز كل فعل أخلاقي. بدون العدالة يتعذر قيام أي نمط من أنماط الحياة المشتركة. كما ما من مجتمع قابل للحياة من دون قوانين تبدو عادلة أخلاقياً، وتتسم بالإتصاف وحسن التطبيق، ومن دون التمييز بين الحق والباطل، ومن دون مجازاة الخطأ. لا شيء يثير الغضب أكثر من الظلم سواء أ كنا أطفالاً أم راشدين. إذ أننا نشعر دائماً بالظلم على أنه أمر مرفوض قطعاً. ولكن لتمييز حقاً الظلم المتأني من البشر، وهو ما يتوجب علينا دائماً أن نحاربه بكل قوانا، من الظلم الذي يصيبنا من الحياة».

الواقع أن الحياة تظهر لنا أحياناً غير عادلة. فهذا الشخص يواتيه المصير أكثر من غيره؛ و ننجز عملاً رائعاً لا يتم الاعتراف به، رجل شرير يبلغ من العمر أرذله ويحالفه الحظ بشكل لا يصدق، في وقت يموت رجل صالح باكراً أو يتعرض بقساوة لضربات القدر. في الحقيقة، هناك ظلم ملحوظ في الحياة. أما بالنسبة إلينا، نحن الذين نؤمن بخلود الروح، فلا أحد يسعه أن يعرف ماذا حدث ربما في حياة سابقة، وماذا سوف يحدث بالتأكيد في حياة مستقبلية. فنحن نعتقد أن عدالة الحياة لا يمكن قياسها بالنظر إلى هذا الوجود الأرضي وحده».

وتقوه حكيم قال: «نميا التواضع. فأن يكون المرء متواضعاً، لا يعني أن يسيء الظن بنفسه، بل أن يكون فكرة صحيحة عن نفسه ويحتل مكانه المناسب. أن يتحلى المرء بالتواضع يعني أنه قابل دائماً للاقتراب من الكمال، وأنه بحاجة أيضاً إلى التقدم وبحاجة إلى الآخرين. وبخلاف ذلك المتكبر الذي يفكر أنه غير محتاج لأحد. ويعتقد أنه أرفع شأناً من الآخرين، ولديه صورة خاطئة عن نفسه. وفي أغلب الأحيان، يرتكب المتكبر أخطاء فادحة في التمييز، لأن شمس ذاته تبهره، وبالتالي يصبح أضحوكة للناس».

وتكلم حكيم منهم قائلاً: «نميا الرضى والاعتدال. أمور قليلة تكفي لسعادة الانسان. والحال أننا صرنا أسرى شهواتنا التي تدفعنا إلى الرغبة في المزيد على الدوام. ويجعل هيجان الشهوة المرء غير راض أبداً. تعلموا الاكتفاء بما عندكما حقاً وتخلصا من كل ما هونافل. واستنذوقا طعم الأشياء البسيطة

ولا تحاول أن تملكا ما يملكه الآخرون. ذلك هو أحد مفاتيح السعادة الكبرى!».

وتكلم حكيمٌ آخر قائلاً: «نميا العرفان بالجميل. أشكرا الحياة على كل ما تهبكما من خير: كالعافية والحب والصدقة والعمل. وعندما تفقدان هذه الهبات الثمينة، أشكرا أيضاً الحياة على العقبات التي تواجهكما لتزدادا شأناً، وتتعلما التواضع أو الزهد، ولتريكما ما لم ترغبا في رؤيته. فالعيش بالعرفان بالجميل هو العيش بقلب مشرّع على المدى الرحب، في تناغم مع روح العالم. عندها يكون كل شيء بمثابة النعمة.

وتحدث أحد الحكماء قائلاً: «نميا الفطنة، فلا تكونا متهورين نزقين. فكرا ملياً قبل الإقدام على عمل وقدراً نتائج أفعالكما. غير أن الفطنة مختلفة عن عدم الجراءة والسوسنة. أن ينصف المرء بالفطنة يعني ببساطة إظهار صفاء الذهن وحس المسؤولية قبل القيام بالعمل. وذلك ما يجنبنا العديد من خيبات الأمل».

وتكلم حكيمٌ قال: «نميا القناعة، ذلك الحد المضبوط في ملذات الحواس. وتحاشيا طريق الزهد والتهتك. فالزاهد والمتهتك لا يحترمان جسدهما: يدمره الأول بالحرمان والآخر بالوفرة».

وتقوه أحد الحكماء قائلاً: «نميا الصبر. فالحياة تربيانا على الاعتصام بالصبر. إنها تعلمنا انتظار اللحظة المناسبة للعمل، ونضج الزمن لجمع الحصاد، وفضيلة الترقب. فيما يدفعنا عدم الاصطبار إلى ارتكاب الكثير من الأخطاء ويوقعنا في حالة من التهيج الداخلي يعكر صفو تفكيرنا. كذلك نميا المثابرة، أي الصبر على العمل وبذل الجهد. تصرفا بثبات حتى بلوغ الهدف المنشود، ولا ترضخا لأي عقبة مهما كانت صغيرة، ولا تستسلما أمام أي يأس وتثبيط للعزيمة».

وتحدث أحد الحكماء قال: «نميا فيكما روح الخدمة. فلا خُزي في خدمة الآخرين، بل على العكس إن الرجل النبيل يُحِبُّ أن يخدم الجميع، ويُحِبُّ أن يضع مواهبه وإمكاناته في خدمة الغير والحياة. ولكن تجنبنا روح السيطرة التي تبقى الإنسان أسير الذات. فمن أحب السيطرة دَمَّرَ نفسه، لأنه يغذيها بشقاء الآخرين، واستعباد العالم، وتدمير الحياة. وقديماً قال أحد معلمي الحكمة: «ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وأهلك نفسه؟».

وباشر حكيمٌ آخر الحديث بقوله: «نميا الصبح والرحمة. فمن الصعب أن يكون المرء دائماً عادلاً وصادقاً وصالحاً وأميناً وفاضلاً. إننا نقع أحياناً في أخطاء ونجد مشقة في وضع مبادئنا حيز التنفيذ. ويتفق أن نجرح الآخرين ونحتاج إلى صفحهم لننتيح للعلاقة الاستمرار والنمو. ولنتعلم كذلك أن نصفح ونتيح الفرصة دائماً لمن يندم على صنيعه. على هذا النحو، نتصرف الحياة معنا. فهي رحيمة توفر لنا على الدوام حظوظاً متعددة. كما يشرّع الصبح والرحمة قلوبنا على احتمال ما هو فوق طاقتها. وهكذا يصبح الجرح، حين يبده الصبح، ينبوع حياة جديدة».

وتكلم أحد الحكماء قال: «نميا التساهل ولا تقتنعنا أنكما وحدكما تمتلكان الحقيقة. فالعالم مختلف والحساسيات متنوعة. وما هو حسن في نظر أحدهم ليس كذلك بالضرورة في نظر الآخر. كما أن ما

يعتبر حقيقة في هذه الثقافة ليس كذلك بالضرورة في الثقافة الأخرى. إن روح التساهل يفسح لنا المجال واسعا أمام ادراك الحياة والعالم. إلا أن ذلك لا يعني أن كل شيء يتساوى قيمة. فالديمقراطية أفضل من الاستبداد، والعدالة أفضل من الظلم، والحب أفضل من الحقد. ولكن ثمة أحيانا أنماطا مختلفة للعيش واستيعاب بعض الحقائق العامة، دونما سبب لمناقضتها. أما في ما يخص الحقائق النهائية، المتعلقة بالله أو المطلق، فليس بوسع أحد أن يملك عنها معرفة واضحة، كما ليس أحد بقادر على الإدعاء أنه يملكها، لأنها تخفى عن فهمنا. وما يتم تناقله في كل ثقافة أو حضارة لا يشكل سوى وجهة نظر جزئية ومحدودة. والذين يسجنون أنفسهم في وضع عقائدي هم متأكدون من عكس ذلك، ولا تستطيع قلوبهم استقبال الحياة بتواضع واستقبال الآخرين باحترام حقيقي».

في هذه الليلة، كان الحكيم المضطرب باله منذ بدء التعليمات في حالة قصوى من الهيجان. ولم يكن قادراً على التقوه بهذا التعليم الأخير عن التساهل نظراً لشدة انقسام نفسه. لم يعد يعلم بما يفكر. كان الصوت يتردد باستمرار ويحضه على التحصن في معقله: «كيف تسمح بالقول أن كل الروحانيات تتساوى؟ التساهل شعور حسن يهيب التربة الصالحة لمذهب النسبية، مدمراً كل حقيقة دينية».

حاول الحكيم الإجابة عن هذا الاعتراض: ولكن إذا اقتنع كل فرد أن ديانته هي وحدها الصحيحة، عندئذ يبطل كل حوار ممكن. وحدها اللامبالاة والتحقير أو المصادمة ستكون راجحة».

واصل الصوت يقول: «إنك لا تفقه شيئاً في الموضوع. لقد واثاك الحظ إذ ولدت في الديانة الحقيقية، تلك التي أوحى بها الله لمختاريه، فيما كل الديانات الأخرى ناقصة غير مكتملة، حتى ولو تمكن أحياناً من الوحي بها. وأنت، يا أيها العاق، تتكر هذا الحظ الخارق الذي وانتك به الحياة لتستسلم لهذه الصورة الوهمية من الحوار الشامل! إنك ستحاسب على ذلك يوم الدينونة».

ارتعد الحكيم بكل جوارحه وتلبسه الخوف. استأنف الصوت كلامه قائلاً: «أي فائدة يؤمل من ذلك؟ لم يبق سوى يومين من التعليم، والآخرين الذين يجهلون الحقيقة، سوف يواصلون هذا العمل الكافر من دونك».

- هل فات الأوان إذاً؟

- يمثل هذان الطفلان خطراً جسيماً، ولا سيما الطفل التيبتي ذو العقل المدرب. فهو الذي سينقل في المستقبل هذه الرسالة الدنسة، مذهب النسبية الضار الذي سيخدع قلوب المختارين نفسها.

- هل مازال بيدي حيلة؟

- أنت تعلم ذلك، غير أنك لا تبوح به لنفسك. يجب وضع حد للشر باستخدام وسائل تلائم مستوى الخطأ المرتكب. انتزع الحياة من هذا الصبي وكل شيء يتم إصلاحه.

- هتف الحكيم: إنه لأمر مستحيل. فالله الذي أكرمه هو إله الحياة، وهو إله رحمة يشجب الجريمة! وهو كذلك إله عدالة وحق. إله كلي القدرة، رب الجيوش، الذي قاد في الماضي أسلحة

المؤمنين لتدمير الكفار. إقرأ الكتاب المقدس! هذا الإله لم يمنع القتل قط حينما تعرض الايمان للتهديد. ما هي حياة المرء بجانب الحقيقة الأبدية؟».

تهاوى الحكيم فوق سريره مبلبل النفس. كان يرتعد من القلق. ظل جامداً لفترة طويلة ثم استوى منتصباً. رأى سكيناً ذات نصل قاطع فوق الطاولة. فأمسك بها وخرج من صومعته.

كان هادئاً يمشي كأنه بهلوان، أنظاره ثابتة وعيناها جاحظتان. دخل على مهله إلى غرفة تنزين الصغيرة، وضوء القمر يكاد يضيء الغرفة. دنا من الصبي النائم بهدوء على ظهره. أمسك بالسكين بشدة في يده اليمنى. وفكر: «يكفي خرق حنجرته. لن يشعر بشيء البتة». انحنى فوق وجه تنزين وحدق إليه، واضعاً حد السكين بهدوء على جلد الكاهن الصغير، إلا أنه تردد.

قال له الصوت: «هيا أقدام، ولا ترتعدنّ يدك. ستنتال نفسك الخلاص». غير أنه ما كان ليتوصل إلى طاعة هذا الإيعاز الداخلي. قال له صوت آخر: «كيف يمكنك أن تنتظر خلاصك بقتل إنسان بريء؟ من هو هذا الإله الذي تخدمه والذي يطالبك بدماء الأطفال كي لا يفقد سلطانه؟».

كانت نفسه ممزقة. لم يدر أيهما الحقيقة. لكنه كلما رمق الطفل، ازداد قلبه تأثراً. وتبين له أنه متعلق بهذا الصبي. ذي القلب الطاهر. قال في نفسه وهو يرتجف: «كلا! لن أستطيع القتل أبداً باسم إيماني. ما زال من الأفضل الاحتراق في الجحيم!» في اللحظة ذاتها رأى ثعباناً يزحف على الأرض، ويصل إلى فراش الصبي، قرب رأسه. عندها أدرك من أين بلغه الصوت الذي أمره بالقتل. أدرك أن الشيطان أغوى نفسه، من خلال الوجه المظلم للقوة التي تحكم العالم. وبحركة سريعة قطع رأس الثعبان.

هبّ تنزين من نومه فجأة، رأى الحكيم منحنياً عليه، وبيده سكين، ووجهه مبلل بالدموع. مثلما رأى الثعبان الميت الذي جُزّ رأسه تَوّاً. «إنك أنقذت حياتي!» ألقى الحكيم سلاحه مطوقاً الولد بكل قواه. «وأنت وهبتي الحياة من جديد! وساعدت قلبي على الانتقال من الخوف إلى الحب».

اليوم السادس هنا والآن أو فن الحياة

تسلقت شمس الصباح الجبل. كان الهواء في غاية النقاء، مما أتاح للناظر أن يتأمل المشهد على امتداد الكيلومترات. وكانت العصافير أكثر عدداً من المعتاد، تتراقص في الفضاء الأزرق، فنتهاوى صيحاتها على الناس كأنها أدعية تهبط من السماء. فيما كان عبير بخور عذب وياسمين يفوح عطرهما في الشرفة. عندها تكلم أحد الحكماء قال: «اسمعا، يا إبنيّ البشر، التعليم النبيل السادس حول التصرف المسلكي السليم. إن الحياة فن، وعلى المرء أن يتعلم العيش في الحياة. فيعتقد المواقف الصحيحة ليتطور ويحقق ذاته تماماً. تجنبنا الحالات المتطرفة، فالحكمة في الإتران ونفاذ البصيرة. ولم يوجد العالم للاستيلاء عليه ولا لاحتقاره. وليست الحقيقة بيضاء ولا سوداء، ولا ينبغي تملق الجسد ولا رفضه. وكما قال أحد معلمي الحكمة القدامى: «تكمن الحقيقة في موقع وسط بين حدين متطرفين».

وتكلم حكيم آخر قائلاً: «هكذا يجب تصوّر علاقتنا بالأشخاص والأشياء: توازن صحيح بين التعلق بخيرات الدنيا والتجرد منها. من الطبيعي إذاً أن نتعلق بمن نحبه. فما من حب بغير تعلق. ولكن لا بد كذلك أن نتعلم تنمية روح التجرد، الذي يذكّرنا أن لا أحد ملك لنا، وأن كل فرد يتبع مصيره الخاص. فلا نترك سم الامتلاك القاتل يعزو نفوسنا. وإذا شعرنا بالحسد، وهو حالة طبيعية جداً، فلنركز العمل على التجرد، ولنرض بفكرة الانفصال. غداً قد يتركنا أو يموت ذاك أو تلك التي نحبه. لذا لا بد أن نتعلم التعلق من كل قلبنا بالكائنات العزيزة علينا، مع التأكيد على تنمية تجرد الروح، الذي يوجد نوعاً من المسافة بيننا وبين انفعالاتنا، ويذكّرنا باستمرار أن كل شيء عابر سريع الزوال، وأن لا أحد ملك لنا. ولنتذكر أيضاً أننا وحيدون، نولد وحدنا ونموت وحدنا. فلا نحاول الفرار من هذه الوحدة الوجودية من خلال التعلق بطريقة مفرطة، وبنوع من الاندماج، بكائن آخر. ولنكن على علم أن الانفصال سيكتب علينا عاجلاً أو آجلاً، ولننتعلم الحب عبر تعلقنا بشكل صحيح.

وكذلك الأمر بالنسبة لكل شيء: لنفد من كل ما تهينا الحياة من أمور ممتعة- الصحة، البيت، العمل، الكرامة- ولكن حذار التعلق بها تعلقاً مفرطاً. ولنكن مستعدين لخسارة ما أعطينا. هذا الموقف الصائب يجلب لنا ما يسمى ب «رجاحة الخلق»: فضاء من السكينة في مواجهة أحداث الحياة السعيدة أو التعيسة. من يبلغ رجاحة الخلق هذه يعدّ أكثر الناس تمتعاً بالحرية. سيستشعر بالتأكيد الحزن

والغضب، اللذة والكدر، الخوف والأمل، ولكن لا شيء سيكدر صفو نفسه التي تتعم بالسلام. كما لن يحتاجه أي انفعال يفقده الفرح والحب اللذين يصلانه بروح العالم.

كان أحد الفاتحين العديمي الرحمة والذمة يتقدم على رأس جيش جرّار في بلد تعرض لدمار شديد. هرب جميع السكان من أمام وجهه. أما الذين بقوا في بيوتهم يعانون أنواع المرض، أو بلغوا من العمر أزدله فعجزوا عن الرحيل، أثنخ فيهم الغزاة تقتيلاً، زارعين الفراغ والخراب في كل مكان. اجتاز الفاتح بوابة دير مهجور، وعبر الباحة دخل إلى العديد من الصوامع الخاوية، وتوقف فجأة. كان ثمة راهب يناهز عمره الخمسين، متربعاً على الأرض، هادئاً بلا حراك، وعيناه مغمضتان. تقدم الفاتح من الراهب الذي تظاهر بعدم رؤيته، استلّ سيفه ووضع حده القاطع على حجرة الراهب، قائلاً له: «أحاول أن تتحداني؟ وتدعي أنك لست تخافني؟ ألا تعلم من أكون؟ ألا تعلم أن بوسعي طعنك بهذا السيف دون أن يرف لي جفن؟».

فتح الراهب عينيه ورمق بهدوء الرجل المخيف قائلاً له: «وأنت، ألا تعرف من أكون؟ ألا تعرف أن باستطاعتي أن أترك سيفك يطعنني دون أن يرف لي جفن؟».

وتحدث حكيم قائلاً: «نحن بحاجة إلى الصمت كي نسمع موسيقى روح العالم. أما إذا كان ذهننا منشغلاً بلا انقطاع ومضطرباً ونشيطاً، فلن يتمكن من بلوغ منبعه العميق. لنهيهء لعقلنا لحظات من السكينة كل يوم. من هذا الصمت العميق، سوف تتبثق أطيب ثمار النفس: السلام، الطيبة، الفرح، الحب، الإدراك، النور. والخلوة مع النفس هي تنفس النفس. إذ يحتاج عقلنا إلى مزيد من الصمت كما يحتاج جسمنا إلى الهواء. كم من النفوس تختنق في الحياة الحديثة المضطربة ولا تقدر أن تجد الفضاء والسكينة الضروريين لتوازنها ونموها!».

وتقوه أحد الحكماء قائلاً: «عندما تندمج النفس بمنبعها، تستطيع أن تدخل في حوار معه بشتى الطرق: وهذا ما تسميه الديانات «الصلاة». ويتخذ الحوار مع المنبع شكل السجود عند المؤمنين الذين يعبدون إليها شخصياً. هذا الارتباط بالإلهي يغذي نفوس المؤمنين ويعززها أكثر من كل نشاط طقسي أو فعل ديني خارجي. كما يمكن أن تتخذ الصلاة شكل طلب أو تسبيح. ويمكن كذلك أن يظل في إطار «قلب لقلب» صامت، حيث يتذوق الإنسان طعم الحب المنبثق من روح العالم، أيّاً يكن الاسم الذي يطلق عليه. لذا فإن الإيمان وحده بالله أو بالصلاة، أو الحمد، أو الطلب، أو إحساس المرء أن قلبه يتجاوب كلياً مع روح العالم، لا يجمع النفس مع منبعها، بل إن كل كلمة وفكرة ونظرة موجهة إلى القوة العجيبة التي تبعث الحياة في الكون تربطنا بروح العالم وتوتّي ثمارها».

وتكلم حكيم آخر قائلاً: «حينما تكونان على صلة بروح العالم، توحى هذه الروح إليكما بأفكار مباحثة نسميها «حدوساً». ومهمة الحدس قائمة على توجيهنا إلى أبعد من المنطق العقلي. عندما يكون هذا الأخير قاصراً عن تقدير موقف ما، يمكن للحدس أن يحذرنا من خطر ويقودنا في طريق جديدة، ويدلنا على الطابع الإيجابي أو السلبي لمقابلة ما. مثلما يمكن للحدس أن يتخذ شكل إلهام فني أو فكري

فتلهم روح العالم الفنان أو المفكر بصورة أو بفكرة. لذا تعلمنا تطوير هذا الحس الباطني عبر ارتباطكمنا بمنبعكمنا. وتلقيا الإلهامات الخلاقة، وأقبلا أن يقودكمنا حدسكمنا. وتحققنا منه في الأمور الصغيرة وسوف تتعلمنا بصورة متدرجة الاعتراف به والإصغاء إليه. عندئذ سوف يمكنكمنا استعماله من أجل خيارات أكثر ضرورة».

وباشر حكيم الكلام بقوله: «كوننا متبهيين، يا ابني البشر، لكل أفكاركمنا، فهي لا تقل أهمية من أفعالكمنا. الأفكار تولد طاقة وتعبّر عن نية. هذه الطاقة وتلك النية ليستا أبداً من دون نتيجة، سواءً في داخلكمنا أم في الكون. إن فكرة سيئة ضد شخص لها، على سبيل المثال، انعكاسات إن بحد ذاتها وإن بالنسبة إليكمنا. فقد يُصاب الشخص ويُجرح دون القيام بأي فعل، ومن غير التلفظ بأي كلمة. هكذا تكرر الطاقة السلبية التي تنتجها الفكرة أنفسكمنا. وبخلاف ذلك، يمكن لفكرة ودودة إيجابية أن تجعل ذاتكمنا أشد إشرافاً، كما للأفكار التي تصوغانها بشأن ذاتكمنا أو حياتكمنا التأثيرات الإيجابية أو السلبية عينها. وكلما استسلمتمنا للأفكار السوداء انتقلت حياتكمنا من سييء إلى أسوأ. أما أنتما فتميا فيكمنا أفكاراً إيجابية، متفائلة، واثقة، يتوثق إذاً وجودكمنا، وتتبثق أحداث سعيدة، وتحل صعوبات كثيرة».

وتكلم أحد الحكماء قائلاً: «لم تجرؤ امرأة شابة، أربعها عنف التيار، على عبور مخاضة النهر. فاقترح عليها أحد الرهبان أن يحملها إلى الضفة الأخرى، تحت الأنظار الشاجبة لراهب شاب. قبلت المرأة. وفي آخر النهار، عندما بلغ الراهبان مشارف الدير، قال الراهب الشاب لزميله العجوز: «إن ما فعلته مخجل ومحذور بحسب قانوننا الرهباني!»

- ما هو المخجل؟ وما هو المحذور؟

- أنسيبت أنك حملت شابة جميلة؟

- آه، نعم... تذكر الراهب العجوز ضاحكاً. أنت على حق. ولكني تركتها قبل ساعات عدة على الضفة الأخرى، فيما أنت لا تزال تحملها دوماً على ظهرك!»

واستهل حكيم آخر الكلام قائلاً: «إذا كانت أفكارنا نافذة، كانت كلماتنا كذلك نافذة، بإمكانها أن تسبب الأضرار أو تفعل الأعاجيب. كلمة واحدة قادرة على إفناء حياة، مثلما هي قادرة على إعادة بث معنى للحياة. إن قوة الكلمة من الأهمية بمكان، بحيث أن بعض الرجال الذين يتقنون امتلاكها يستطيعون استمالة الجماهير، وتحريض شعوب بأكملها، وتكدير نفوس أو استعبادها. تعلمنا، يا ابني البشر، التحكم بكلامكمنا، وفكرنا في تبعات أقوالكمنا».

زار أحدهم حكيماً عجوزاً، وقال له: «يا معلم، لا بد أن أخبرك بطريقة تصرف تلميذك. قاطعه الحكيم قائلاً: «أوقفك عن الكلام فوراً! هل مررت ما تريد قوله لي عبر المناخل الثلاثة؟ ردّ الرجل متعجباً: «مناخل ثلاثة؟»

- يجب أن تمرر أقوالك عبر مناخل ثلاثة: الأول هو منخل الحقيقة. هل تحققت من أن ما تريد

قوله صحيح؟

- كلا، لقد سمعته يقول ...

- حسناً، من المؤكد أنك مررتَ أقوالك عبر المنخل الثاني، منخل الطيبة. فإن لم يكن صحيحاً تماماً ما تريد قوله لي، فهو لا محالة حسن.

- كلا، إنما على العكس ...

- إذاً لنمرّرَ أقوالك عبر المنخل الثالث. هل لديك من الكلام ما هو مفيد لي؟

- خالص الحكيم العجوز إلى القول وهو يبتسم: «حسناً، إن لم يكن ما عندك من كلام صحيحاً ولا حسناً ولا مفيداً، فأنا أفضل ألا أسمعهُ. أما أنت فأصحك بنسيانه».

واستهل حكيم آخر حديثه بقوله: «كونا إذاً متنبهين لأفكاركما وأقوالكما، وحاو لا أيضاً أن تكون لكما أفعال ونمط من العيش صائب. إذ أن للعديد من الرجال أفكاراً صائبة وهم حريصون على الأقوال الحسنة، غير أنهم لا يتوصلون إلى مطابقة أفعالهم بأقوالهم. لذا من الأيسر أن يكون المرء حكيماً بعقله من أن يكون حكيماً بأفعاله. ما من ريب أن لا شيء أصعب من أن نلائم بشكل متناسق بين أفكارنا وأقوالنا وأفعالنا. كونا إذاً متنبهين وأسألاً أنفسكما كل مساء: «هل تصرفت اليوم طبقاً لاقتناعاتي ونياتي ومبادئ في الحياة؟ كذلك إسألاً أنفسكما حول طريقة عيشكما: «أهي حسنة، صحيحة، متزنة؟ ما الحيز الذي تخصصناه كل يوم، للعناية بالجسد والنفس؟ وللحصة المخصصة للآخرين؟».

وتكلم حكيم قال: «مات ملك عجوز، فاعتلى ابنه الوحيد العرش خلفاً له. واذ كان مدركاً لجهله، دعا رجال مملكته الأوسع علماً إلى الاجتماع. وطلب منهم أن يسافروا في أرجاء العالم للإتيان بكل العلم والحكمة الشائعين في ذلك العصر. عادوا بعد ستة عشر عاماً محملين بكتب شتى في مختلف اللغات. تبين للملك أن حياة واحدة لن تكفيه لقراءة كل شيء، واستيعاب كل شيء. لذا طلب من المثقفين أصحاب العلم الواسع أن يقرأوا هذه الكتب عوضاً عنه، ثم يستخلصوا منها زبدة المعلومات ويحرروا لكل علم من العلوم مؤلفاً واحداً سهل المنال. انقضت أيضاً ستة عشر عاماً قبل أن يعدّ العلماء مكتبة تحتوي على خلاصات كل العلم وكل الحكمة. وأدرك الملك، حين طعن في السن، أنه لن يتيسر له الوقت لقراءة كل هذه الكتب كاملة. فرجا إذاً العلماء أن يكتفوا بكتابة مقال واحد، يضم ما هو جوهري في كل علم. وانقضت ثمانية أعوام أخرى. وكان الملك قد غلبه التعب والمرض، فطلب من كل عالم أن يوجز مقاله في عبارة واحدة. وهنا تطلب العمل أربعة أعوام أخرى.

أخيراً تم تأليف كتاب واحد يشتمل على عبارة واحدة خاصة بكل علم وحكمة من علوم العالم وحكمها. تمت الملك المشرف على الموت لمستشاره العجوز، الذي حمل إليه الكتاب: «هات أعطني عبارة واحدة توجز كل هذا العلم وكل هذه الحكمة، عبارة واحدة فقط، قبل أن ألفظ أنفاسي الأخيرة!

- مولاي، قال المستشار، كلُّ حكمة العالم تتوقف على كلمتين اثنتين: «عش الحاضر».

وتقوه حكيم من الحكماء قال: «لا جدوى من أية خبرة لا يعيشها صاحبها بانتباه في اللحظة الحاضرة. فعيوب الانتباه تجلب معها صعوبات فيزيولوجية وعاطفية، وتحدّ من نمونا الروحي. لذا تدريباً على ضبط انتباهكم: كونا حاضرين في كل ما تفعلان. هذا التيقظ للعيش «هنا والآن» سوف يحل العديد من المشكلات الجسدية والعاطفية، ويفتح كذلك قلبكما ويحسن علاقاتكما بالآخرين، ويجعلكما تختبران تجارب روحية عميقة. إذ أن نوعية الانتباه التي نستخدمها تنعكس آثارها على إيقاعات المخ الكهربائية، وهذا يؤثر ارتداداته في الجسم برمته: من ضغط عضلي، وإيقاعات القلب والتنفس... وكذلك من إدراك وذاكرة وهناء. إن نوعية حضورنا في العالم ذات تأثير حاسم في توازننا العاطفي والنفسي والروحي. وعندما يكون هذا الحضور ماثلاً هنا أيضاً، ومستغرقاً في اللقاء مع الآخرين أو مع العالم، يتذوق المرء طعم روح العالم. أن نكون منتبهين في اللحظة الحاضرة لما نفعله، ولما نشعر به، مع الذين نعيشهم: ذلك هو أحد المفاتيح الأكثر أهمية لعيش حياة صالحة».

كانت نهاية التعاليم وشيكة، فأحس الجميع، عشية هذا اليوم السابع والأخير، بالبهجة والحزن على السواء. بهجة وعزاء لأنهم استطاعوا أن يبلغوا ختام هذا التدريب الصعب، وأن يتمكنوا من العودة إلى ديارهم. وحزن أيضاً لأنهم سيفترقون عما قريب. إذ إن علاقات عديدة كانت قد استحدثت فيما بينهم على مرّ الأيام والأحداث المأساوية أو السعيدة وتحول جميعهم وتبدلت قلوبهم وعقولهم. فلن يكون شيء ما، بالنسبة إلى كل منهم، كما كان عليه من قبل. واتسمت هذه الليلة ما قبل الأخيرة بالهدوء خصوصاً، إلى أن بدأت الكلاب تنبح بعد منتصف الليل حتى الموت. نهض الرهبان والحكماء واكتشفوا مشهداً عجباً: نوراً ضارباً إلى الزرقة يضيء قبة السماء. كان النهار طالعاً كأنه الفجر، بينما كان الوقت منتصف الليل. استمرت الظاهرة ساعة كاملة، ثم تلاشت بوتيرة متدرجة، وعاد الليل أسود فاحماً، إذ لم يكن هناك قمر في الصباح، تكلم الحكماء عن هذا الحدث الليلي ووجوههم متعبة. وشاركت أنسيا في سرد حلم مزعج، رأت فيه الشمس مظلمة في وضوح النهار، والجبل الأبيض يذوب على حين فجأة مبتلعاً الدير تحت طوفان من الثلج. قال الحكماء فيما بينهم لقد أن الأوان لإنهاء تعليمهم، إذ إن جميع هذه الإشارات تدل بالتأكيد على قرب وقوع الكارثة الكبرى. وفي مناخ احتقالي شبيه باليوم الأول، سلموا الصبيين المفتاح الأخير للحكمة.

اليوم الس-ابع
السعادة والشقاء
هُما ف-ي داخلك
أو عن قبول ما يكون

وتكلم أحد الحكماء قال: «إسمعا، يا ابنيّ البشر، التعليم النبيل السابع حول قبول ما يكون. الموقف الأهم، أو الطريقة المثلى، التي تعتبر تنويجاً للحكمة هي قبول الحياة، أي قبول الواقع وعدم رفض ما يعرض لنا. يمكن، لا بل يجب أن تتغير بعض الأمور. ولكن لنبدأ بقول «نعم» للحياة. إن أصابنا مرضٌ فلنتقبله ولنفعل ما يتوجب علينا فعله للشفاء منه. ونستطيع بحق أن نشعر بالغضب والحزن، ولكن لنتجاوزهما. لسنا نحب هذه السمة في جسمنا أو تلك النقيصة في طبعنا؟ لنبدأ بقبول ذواتنا وحب أنفسنا كما نحن في الواقع، ومثلما هيأتنا الحياة. ثم لنعمد إلى كل الوسائل الممكنة لتغيير هذه السمة القبيحة أو لتحسين تلك النقيصة. وأحياناً نحن عاجزون عن الإصلاح لأن بعض الأمور لا يتعلق مصيرها بنا. وهذا يحفزنا إلى أن نتعلم «إرخاء قبضتنا»، وعدم مراقبة كل شيء، بل النمو في الثقة والتجرد والتواضع والسكينة والحب.

وتحدث حكيم آخر قائلاً: «في أغلب الأحيان، نرفض الحياة معتقدين أنها هي التي ترفضنا. عندما يحل بنا مرض أو محنة، نصب جام غضبنا على الحياة. مع ذلك يحدث أحياناً أن هذه الصعوبة هي نتيجة أفعالنا الذاتية، أو أنها وجهت إلينا كي تحثنا على الحركة والنشاط، بسبب انغلاقنا على الحياة والتغيير والواقع، وينتصب في وجهنا العديد من العقبات. إنها هنا لتساعدنا على تطويرنا، وتجعلنا ندرك أن أمراً ما ليس على ما يرام في وجودنا. وأنا كبتنا في لاوعينا حدثاً نرفض الإقرار به. غير أننا بدل أن نعتبر هذه العقبات مؤشرات للحياة، ننغلق في معظم الأحيان في الرفض والتشنج، عندئذ يتفقم ألمنا».

وتقوه أحد الحكماء قائلاً: «قال قديماً أحد معلمي الحكمة: «لا تطلب أن تجري الأمور كما تشتهيها، إنما تمنّها كما تحدث وستكون سعيداً».

واستهل حكيم حديثه بقوله: «ليست العناصر الخارجية هي التي ينبغي تغييرها، بل أفكارنا ومعتقداتنا التي تكيف إجمالاً ما يحدث لنا. قال أحد معلمي الحكمة القدامى: «كما نفكر نكون» إن أفكارنا ومعتقداتنا تؤثر تأثيراً حاسماً في مجرى وجودنا. وغالباً ما يصبح ما نفكر فيه أو نعتقده واقعاً.

ونعربل كذلك الواقع، غير أننا لا نلاحظ فيه إلا ما يؤكد معتقداتنا. فالمتشائم يرى في كل مكان من العالم إشارات سلبية تؤيد تشاؤمه، والمتفائل يرى في كل مكان بوادر أمل تؤيد تفاؤله. وقد تصل قوة معتقداتنا إلى اختلاق أحداث تؤكد لها. من هنا فإن الإنسان الخائف لديه مزيد من الاحتمالات للتعرض للاعتداء من إنسان آخر لا يخاف. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الإنسان المعقد الذي يتعرض للرفض أكثر من إنسان آخر واثق من نفسه. وهكذا فإن رؤيتنا لأنفسنا وللعالم تكيف جزءاً كبيراً من الأحداث التي تقع لنا.

أمر رجل معجب بذاته أن تغطي جدران غرفته وسقفها بمرايا. وكان لرغبته في حبس نفسه بداخلها، وهو يتأمل صورته، يخرج منها في كل مرة ممثلاً اعتداداً بنفسه ومستعداً لتحدي العالم. غادر، ذات صباح، الغرفة ناسياً إقفال بابها، فدخل كلبه إليها. وراح، إذ رأى كلاباً أخرى، يشمها ويهزها مكشراً عن أنيابه ومهدداً إياها. ولما كانت انعكاسات الصورة تهدده، هاجمها بغاية العنف. وكانت معركة ضارية، إذ أن المعارك ضد الذات هي الأشد شراسة! وهكذا مات الكلب نتيجة الإعياء. مرَّ أحد الحكماء من هناك فيما كان صاحب الكلب يقفل باب غرفته. قال له الحكيم: «دع الغرفة مفتوحة لأن فيها الكثير مما في وسعه أن يعلمك».

- ماذا تقصد بقولك؟

- يقف العالم على الحياد مثل هذه المرايا. وبحسب ما نكون معجبين بأنفسنا أو خائفين، تردّ الينا ما نقدمه لها. كونا سعيدين، فالعالم سعيد، وكونا قلقين فهو قلق أيضاً. إننا نحارب باستمرار انعكاساتنا ونموت ونحن نصارع أنفسنا. إسمعا هذا الكلام: «إننا لا نرى أبداً في كل كائن وفي كل لحظة، سعيدة أو أليمة، سهلة أو صعبة، إلا صورتنا وحدها».

وتكلم حكيم قائلاً: «تقبل قوانين الحياة الكبرى ولا شيء سيعكر صفو بالك. القانون الأول هو أن كل عمل تتأتى منه نتيجة. فأنت غالباً ما تحصد ما زرعت، بوعي أو من دون وعي، بأفعالك وأقوالك، في هذه الحياة أو ربما في حياة أخرى. لا تتهم إذاً الحياة أو الآخرين. والقانون الثاني هو أن كل شيء غير ثابت بل زائل، وفي تغير دائم. فلا تتكّد لوهم الاستقرار والأمان، بل تقبل التغيير والحيرة والموت. حينذاك سينعم قلبك بالسلام على الدوام.

وباشر حكيم آخر الكلام بقوله: «لا يتقدم المرء بالرغم من التجارب والصعوبات اليومية، بل بفضل التجارب والصعوبات اليومية. وكما ينتقل من طابق إلى طابق ليس بسبب الدرجات، وإنما بفضلها، هكذا فإن العقبات هي درجات نستخدمها للصعود. لا نكون إذاً ضحايا الأحداث الخارجية بل تلاميذها».

وتحدث أحد الحكماء قائلاً: «تعلموا ألا ترفضوا شيئاً من هبات الحياة. فالرفض يجلب معه ألماً يفوق ألم القبول. أنكما تتحملان الألم الجسدي بطريقة أفضل حين تقبلان أن تعيشاه مما لو واجهتماه بالرفض. غوصا في الألم، واتركاه أن يجتاحكما كما تدعان البرد يجتاحكما، بدل أن تكافحاه عبثاً.

عندها تخف وطأة الألم بشكل غريب. كذلك اعتبر الألم جزءاً من مجموعة أرحب من هذا الألم. تقبله وأذياه في إناء الوعي الواسع، يغدو أكثر قابلية للاحتمال».

وتكلم حكيم آخر قائلاً: «لا ترفضاً قسمة الظل والضباب والظلام التي تحملانها في ذاتكما. إذ إنكما حين تتكرانها أو حين ترغبان في السيطرة عليها بطريقة إرادية أو قاسية، تعملان على تنمية قوتها. سوف تشهدان يوماً العودة العنيفة للمظلم والمكبوت في هيئة فعل قسري أو مرض. تقبلا كل ما هو فيكما وادمجاه في وعيكما عبر عملية قبول حقيقية لما هو كائن. ثم اعملا على تحويل انفسكما في مناخ من الثقة والحب».

واستهل حكيم الكلام بقوله: «تعلمنا أن تقبلا نقاط الضعف فيكما وتحباها. فتصدّع الكائن هو الثغرة التي من خلالها تربطنا الحياة بعضنا ببعض عن طريق الحب. لا ترتبطن فقط بالآخرين عبر تآزر قوانا ومواهنا، بل كذلك، وبنوع أخص، عبر تكامل نواقصنا ونقاط ضعفنا. تريد الحياة أن يحتاج الواحد منا إلى الآخر، وأن نتمكن من دعم بعضنا بعضاً بالحب. إذ إن روح العالم تتصرف على النحو التالي: كل كائن مزدان بموهبة تتيح له أن يكون دعامة أو عزاء أو نوراً للآخرين، كذلك يشكو من تصدع وشق وهشاشة تستدعي عون الآخرين».

وتقوه حكيم قائلاً: «كان لامرأة عجوز إناءان كبيران معلقان على طرفي خشبة، تحملها على كتفيها لجلب الماء. في نهاية مسيرتها الطويلة من البئر إلى بيتها، تشفق أحد الإناءين ولم يعد إلا نصفه ممثلاً بالماء. أحس الإناء السليم باعتزاز عظيم بالنفس، فيما خجل الإناء المتشقق من عيبه، وشعر بالحزن لعجزه عن إنجاز عمله كاملاً. في ختام عامين، توجه الإناء إلى المرأة العجوز على مقربة من البئر، قائلاً: «إنني أخجل من نفسي لأن تشققي يجعل الماء يقطر على امتداد الطريق المؤدية إلى البيت». ابتسمت المرأة العجوز قائلة: «هل لاحظت أن هناك، في الجانب المحاذي لك من الطريق، أزهاراً، وفي الجانب الآخر لا وجود للأزهار؟ لقد نثرت، فور علمي بتشققك، بعض البذور في الناحية المحاذية لك. وكنت أنت، في طريق العودة إلى البيت، تسقيها بالماء المنقطر. وخلال عامين، جمعت بفضلك أزهاراً رائعة زينت بها طاولتي».

وتكلم حكيم قال: «العالم، ذلك الإناء الروحي، لا يمكن صوغه. من يصغه يدمره، ومن يمسك به يضيّعه» هذا ما قاله أحد معلمي الحكمة القدامى. بينما يدّعي الإنسان المعاصر أنه يرغب في الهيمنة كلياً على حياته وبيئته. والحال أنه يريد التحكم بالعالم، فيتملص العالم منه ويتمرد عليه عبر العديد من الاضطرابات الطبيعية. وإذ يرغب الإنسان في ضبط كل شيء في حياته تقلت الحياة منه عبر نمو الكثير من الأمراض الجسدية والنفسية».

وتحدث حكيم آخر قائلاً: «لا نبحثن أبداً عن الألم، كما يفعل بعض رجال الدين من خلال إماتة الجسد. إذ إن الألم سيوافينا عاجلاً أم آجلاً. وعلى نقيض ذلك، فإن الموقف القائم على بذل كل ما بالإمكان بذله لتجنب الألم، هو أيضاً موقف سلبي، لأنه يحول دون عيش الحياة كاملة. فنحن عندئذ لا

نخاطر بشيء، ونتحاشى كل ما يمكنه أن يجرحنا، كما لا نقوم بأي جهد مكلف. وهكذا تصبح حياتنا محدودة وتتلاشى بهجة الحياة. أشخاص أكثر هم تعساء، يفضلون البقاء في حالة من التعاسة مريحة وغير مؤلمة على أن يرضوا ببعض التضحيات والجهود أو الخيارات الأليمة في الوقت الحاضر، التي قد تتيح لهم الوصول إلى سعادة أوسع نطاقاً. وكما لا بُدَّ للمريض أن يقبل أحياناً الخضوع لعملية جراحية صعبة، هكذا

يتعين على المرء أن يدرك أن عقبات الحياة قد تكون علاجاً يبعث به القدر لشفاء النفس وتعزيزها».

وتكلم أحد الحكماء قائلاً: «لا تحوّل ممكناً من دون ألم. وينبغي، لاختبار أفراح غامرة، أن يجازف المرء في اجتياز آلام فادحة».

وتحدث حكيمٌ قائلاً: «إن حياتنا منسوجة بخيوط مرئية وغير مرئية. نحن لا نرى إلا الخيوط المرئية، ونتمرد أحياناً على سوء الطالع أو القدر. ولكن لو استطعنا معرفة حيكمتها غير المرئية لاكتشفنا إذاً أن كل حدث يبدو لنا غير مؤاتٍ، يحمل بصورة خفية مغزىً عميقاً قد يكون لمصلحتنا. والكثير من الأحداث التي نعتبرها تاعسة سوف تظهر لنا بمثابة حظوظ، لو كنا على علم بحبكة القدر غير المرئية».

وتقوّه أحد الحكماء قال: «إليكما حكاية ملك كان هوسُ خادمه الممتاز أن يردد في كل مناسبة: «كل شيء من أجل الأصلاح»، وهذا ما أثار غضب الملك. في ذات يوم، جرح الملك إصبعه وهو يقطع غصناً من شجرة. عندما رأى الخادم ذلك، لم يتمالك نفسه عن التردد: «كل شيء من أجل الأصلاح، مولاي». اغتاظ الملك وأتى به إلى جوار بئر جافة، وزعق قائلاً: «سأرميك في هذه البئر، ما رأيك؟». أجاب الخادم غير متأثر: «كل شيء من أجل الأصلاح».

استشاط الملك غضباً ورماه في البئر. للحال وجد الملك نفسه محوطاً بجماعة من المتوحشين، عبدة آلهة مخيفة، من عادتهم أن يقدموا لها ضحايا بشرية. ألقى القبض على الملك، قيّد ثم اقتنيد إلى معبد الآلهة للتضحية به. لاحظ كاهن الهيكل الجرح في إصبع الملك، فأعلن أنه مدنس بسبب هذا الجرح، ولا يمكن التضحية به. سر الملك لأنه ما زال على قيد الحياة، وتذكر كلمات خادمه. فعاد أدراجه ليساعده على الخروج من البئر التي رماه فيها بما أن تخلص الخادم من مأزقه حتى أسرّ الملك له بمغامرته ووافق على مقولته «كل شيء من أجل الأصلاح»، إذ إنه لو لا إصبعه المجروحة لكان الآن من مرتادي العالم الآخر. ولكنه، بالرغم من ذلك، خامره الشك فسأل الخادم: «أيها الخادم الحكيم، لقد اتضح لي أن مقولتك «كل شيء من أجل الأصلاح» دقيقة وصحيحة بالنسبة لي، ولكن كيف تبررها أنت فيما يخصك؟

«مولاي، لو لم ترمني في البئر، لكان هؤلاء المتوحشون سيلقون القبض علي أيضاً ويضحون بي للآلهة. لهذا السبب «كل شيء من أجل الأصلاح» ينطبق علي كذلك».

ثم تحدث حكيم قائلاً: «لا يسعنا أن نتحرر من العالم، ولكن يسعنا أن نتحرر من عالمنا، من سجن معتقداتنا وذواتنا. كما لا يستطيع أحد أن يغير حياته، ولكن الجميع يستطيعون تغيير معتقداتهم وطريقة معيشتهم اليومية. فالسعادة والشقاء كامنان في داخلنا، والنعيم والجحيم لا وجود لهما إلا في قرارة نفوسنا!».

وباشر أحد الحكماء الكلام قائلاً: «جلس حكيم عجوز على قارعة الطريق، مغمض العينين، متربعاً على الأرض، ويداه فوق ركبتيه. فجأة، قطع عليه صوت محارب جهور وتهجمي تأمله. «قل لي، أيها العجوز، ماذا يشبه النعيم والجحيم؟ لم يُبدِ الحكيم في بادئ الأمر أي ردة فعل. ثم فتح عينيه شيئاً فشيئاً وهشَّ للمحارب المنتصب أمامه. كان هذا الأخير قد عيل صبره وتعاضم اضطرابه.

«أتريد أن تعرف أسرار النعيم والجحيم؟ أنت، بمظهرك البائس هذا، وجزمتك وملابسك الموحلة؟ وبشعرك المنفوش، ونفسك الكريه، وسيفك الصدى؟ أنت البشع جداً، تجرؤ على الطلب مني أن أحدثك عن النعيم والجحيم؟». أخذ الغضب من المحارب كل مأخذ، فراح يردد أقبح الشتائم، مستلاً سيفه ومسلطاً إياه فوق رأس العجوز. كان وجهه محمراً، وعروق عنقه منتفخة من الحقد، فيما همَّ بقطع رأس الحكيم. قال له العجوز: «هذا هو الجحيم». فجأة أوقف المحارب حركة يده، وبقي فاغر الفم من جراء الدهشة والاحترام والإشفاق، حيال هذا الرجل الذي جازف بحياته ليلقنه هذا الدرس. امتلأت عيناه بدموع الود وعرفان الجميل. وخلص الحكيم إلى القول: وهذا هو النعيم!».

كذلك تكلم أحد الحكماء قائلاً: «إسمعا، يا ابني البشر، حقيقة الحكمة الأبدية الكبرى: يتوقف الطريق على الانتقال من الوعي الذاتي إلى الوعي الشامل. الوعي الذاتي ثنائي التكوين: فهناك «الأنا» و«العالم». وقد حاولت جهدي، طوال حياتي، البحث عما يغذي ذاتي ويرضيها، وتجنب ما لا يرضيها. أما الوعي الشامل فليس ثنائياً: إذ ما من فصل بين الأنا والعالم. عندها أتخلى عن قانون الجاذبية والتنافر الميكانيكي لأسلك الطريق الحر للقبول بما يكون. وأقول «نعم» للكائن والواقع والحياة. فلا أعود أفنش عن مصلحتي الأنانية في العالم. كما لا أعود أقول: «لو كان العالم حسن الصنع لاستجاب لجميع رغباتي». إنما أقول: «أمنيتي الوحيدة هي أن أكون حاضراً كلياً ومنفتحاً على العالم كما هو في ذاته» إن إرخاء القبضة الأخير، الذي يتحقق عبر انتباه كل لحظة، هو إرخاء قبضة الذات، أعيش حينئذ في نبض روح العالم. من يبلغ في هذه الحياة- وبطريقة ثابتة- تلك الحالة من الوجود يصبح ما تسميه تيارات العالم الروحانية «ناجياً حياً»، «متيقظاً»، «حكيماً» أو «قديساً». ويصير الحب القوة الوحيدة التي تحرك حياته، فيختفي الخوف، ولا يعود من وجود للرجاء والزمن. إنه يحيا في اللحظة الأبدية لما هو كائن. ولا يعود هنالك سوى فرح الوجود، وسوى أن يكون على صلة بجميع الكائنات. وتعمل روح العالم من أجل أن تبلغ كل النفوس يوماً هذه الحالة من التحقيق».

وتحدث أخيراً حكيم قائلاً: «كل طريق الحياة يكمن في الانتقال من الجهل إلى المعرفة، ومن الظلمة إلى النور، ومن عبودية الحواس إلى حرية الروح، ومن غير المتمم إلى المتمم، ومن اللاوعي إلى الوعي، ومن الخوف إلى الحب. هذا السعي هو أجمل مغامرة ممكنة: مغامرة الحكمة الداخلية.

ولتحقيق ذلك، لا يهم أن تكون غنياً أو فقيراً، متواضعاً أو مقتدراً، صغيراً أو كبيراً. الحكمة في تناول الجميع. وهي تبذل نفسها مجاناً، إذ يكفي فقط أن تشتهيها، لتتجلى لك طوال حياتك كما هي في الحقيقة: رحلة تلقين باطني. هيا تحرك وتوجه نحو ذاتك! عندها سوف يبتسم الكون لك».

الجزء الثالث
وعمّ الظلام الأرض بأجمعها

1

الكهف

مشى تنزين، بخطى بطيئة ثابتة، بصحبة ثور عظيم الجثة، وعيناه محذقتان في الدرب الكثير الحجارة. مشى منقبض الصدر، فيما كان الحكماء، غداة اليوم السابع، قد عادوا إلى ديارهم، بعدما شاركوا للمرة الأخيرة في رفع الصلاة، مستودعين روح العالم مصير البشر. ثم سلكوا طريق القرية. وكان تنزين قد ضم مطولاً كل فرد منهم بين ذراعيه، لأن كلاً منهم بات له بمثابة أب أو أم. ثم ودّع ناتينا. وتواعد المراهقان، وقد كظما حزنهما، على تبادل الرسائل قريباً. ولكن ما أن غادرت الفتاة الدير، حتى بكى كل منهما مخافة ألا يتلاقيا أبداً.

راود تنزين شعورٌ مسبق أن عليه هو أيضاً أن يبتعد عن الدير. واحتلت ساحة تفكيره صورة صومعة صغيرة داخل كهف، يقع على مسيرة ثلاثة أيام. قال في نفسه: حسنٌ أن يذهب بمفرده للتأمل، خلال بضعة أسابيع، بغية استيعاب التعاليم. وسأل الراهب دورجه رأيه، وبعد فترة من التردد، أيد خياره. إنطلق تنزين بصحبة ثورٍ محملاً بالماء وطحين الشعير وبعض الأغذية.

بلغ، مساء اليوم الثالث، الصومعة القائمة عند مدخل كهف عميق، يظهر أنه يغيب في بطن الجبل. أنزل حمولة الثور ووضع الماء والطعام في مكان أبعد داخل التجويف. ثم جلس على الأرض متربعاً، وتأمل المشهد الذي بدا ممتداً إلى ما لا نهاية. أطبق عينيه وولج صومعة عقله وبدأ تأمله.

ظلَّ على هذا المنوال حتى غروب الشمس. ثم توجه إلى مؤخر الكهف يسعى لشرب الماء. حينذاك وقع الحدث العظيم.

غضب

ضجيج مُصمّ، أشبه بفرقة ضخمة، جمّد تنزين من الرعب. تزلزلت الأرض من تحت قدميه، وأخذت تهتز وتتشقق من كل الجهات. ولتو تهاوى عليه طوفان من الحجارة. فارتدى على الأرض محتمياً بالجدار. استمرت هذه الظاهرة فترة وجيزة، لكنها كانت ذات عنف لا يصدّق. ثم توقفت الأرض عن الاهتزاز وكفّ أخيراً وابل الصخور عن الانهمار. ولما وثق تنزين من زوال الخطر، زحف بحذر حتى مدخل الكهف، الذي كاد ركام الحجارة يسده تماماً. ولكن عثوره على ثغرة صغيرة فرّج عن نفسه. انتظر بفارغ الصبر أن يخرج إلى الهواء الطلق بعد هذه الطامة الكبرى. غير أنه لم ير سوى سحابة سوداء ضخمة من الغبار الأسود ملأت السماء بصورة متدرجة. فسعل لأن الهواء ما عاد صالحاً للتنشق، وعاد أدرجه إلى مكانه.

ظلّ على هذا النحو في الكهف ينتظر جلاء الغبار. لحسن الحظ، كان لديه ماء كاف وطعام يساعده على الصمود عدة أسابيع. انصرف بالتالي إلى التأمل في الظلام لساعات، ثم توجه ليرى خارج الكهف. ولاحظ، يوماً بعد يوم، أن السماء ما زالت أشد سواداً. أخيراً، فقد في العتمة شبه الكاملة كلّ إحساس بمرور الزمن، ولم يعد قادراً على تمييز النهار من الليل، والصمت السائد يؤثر فيه أكثر من كل أمر آخر. إذ لم يكن قد سمع بمثل هذا الصمت، وأحس كأنه الكائن الوحيد على وجه الأرض.

فكّر في أصدقائه الرهبان: هل ما زالوا على قيد الحياة عقب هذه الكارثة الكبرى؟ وناتينا، ما حالها؟ والحكماء السبعة؟ وجميع الكائنات الحية؟ حاول أن يهدى اضطراب قلبه بممارسة تمارين اليوغا. وراح، على مر الأيام، يقنن الطعام والماء، إذ لم تكن لديه أي فكرة عن الوقت الذي يتعين عليه البقاء هنا.

غشى الغبار وجه السماء لأربعين ليلة وأربعين نهاراً. في صبيحة اليوم الواحد والأربعين، أيقظته تغريدة عصفور، فقفز قلبه من الفرح: لم يكن واحداً أحداً في العالم! واندفع مسرعاً إلى الخارج، ولاحظ أن الشمس بدأت تخرق ستار الغبار. إلا أن الهواء ما زال يصعب تنشقه. بعد بضعة أيام، خرج من جحره، وتأمل مشهداً منقلباً بكليته رأساً على عقب: جباله العزيزة على قلبه زالت من الوجود، ولم يبق سوى خليط مضطرب من الحجارة يعزّ وصفه. كانت الأرض مبعوجة في جميع الأمكنة، والكتلة العجيبة المنصهرة تدمدم في الأعماق السحيقة.

ماذا جرى؟ أهو زلزال على نطاق كوكب الأرض؟ أم أنه مذنّب هوى من أعالي السماء؟

انطلق تنزّين بمفرده صوب الدير، بعدما نفق ثوره تحت طوفان الصخور، شاقاً بصعوبة طريقاً عبر أكوام الأنقاض وفوهات البراكين. الأرض جريحة وبعض العصافير تحلق في السماء، لكنه لم يلحظ أي حيوان بري. وكان، كلما اقترب من الدير، ازداد قلبه قلقاً. هل استطاع ساكنو الدير أن ينجوا بأنفسهم بعد هذه الكارثة الكبرى؟

حزن وخراب

كان الجبل الأبيض شبه منهار على نفسه، واختفى الثلج كلياً من المنطقة. عبثاً حاول تنزين البحث عن المنحدر الصخري الذي كان الدير جاثماً عليه. لقد أدرك أنه لن يعثر على أي من الناجين، كما لن يعثر بلا ريب على أي أثر من البناء. جلس على صخرة وأخذ يبكي. بقي هناك لساعات، وهويذرف الدموع على أصحابه ومعلمه العجوز، غير عالم ماذا يفعل، وإلى أين يذهب.

عنت بباله ذكرى. في أحد الايام، جاءت قروية إلى الدير حاملة على ذراعيها الهزيلتين جثة ابنها المتوفى. كانت ثائرة على المصير الغاشم الذي خبأته الحياة لولدها. حينذاك روى له الراهب دورجه هذه الحكاية التي ظلت محفورة في ذاكرة الراهب الفتى.

ذات يوم، أتت امرأة عند بوذا تتوسل إليه أن يعيد الحياة إلى ابنها ذي السنوات الخمس، الذي مات لتوه. لا بد أن خطأ وقع، إذ توافرت للطفل كل الأسباب للبقاء على قيد الحياة. لماذا توفي هو وليست هي أو واحد من اقاربها؟ قال لها بوذا هذا الكلام: «سوف ترين ابنك حياً يرزق بشرط أن تتسولي لي حبة خردل، وأن يعطيك الحبة رجل أو امرأة، لم يبك تحت سقف بيته أي ميت». تنقلت الأم من بيت إلى بيت، ومن قرية إلى قرية. لقد أعطوها حبات خردل بقدر ما تمننت، غير أنها عبثاً سارت جاهدة، إذ لم تعثر على مسكن واحد لم يطرق الحداد بابه قط. فما من قصر ولا كوخ، وما من فندق ولا صومعة ناسك إلا وأوى يوماً مبيتاً. رجعت المرأة بخفي حنين عند بوذا قائلة له: «أعرف تماماً أن كل ولادة يقابلها موت. هذا هو القانون، ولا أحد قادر على مخالفته. ولكن هل أنت على علم بما هي الأم؟ وهل أنت على علم بالعذاب الذي تعانيه حين تراه يموت على صدرها؟ إنه لأمر مفرح بقدر ما هو ظالم. لم يعيش ابني ما فيه الكفاية. لقد اختطفه الموت في الخامسة من عمره وهو لا يزال مشتاقاً إلي. لقد كان بأمس الحاجة إلى حبي وحناني!».

أجاب بوذا: «سنقوم بطرح السؤال عليه أن كان راغباً في العودة إليك. أقسم لك، يا امرأة، إن كانت هذه رغبته، فسيعاد إليك.

بسط بوذا يديه أمامه، فتراعت روح الميت مستلقاة في جوف البيوت، وبدا أنه غاف

- يا صبي، أمك تطلبك إليها.

أجاب الصبي: «عمّ تتحدثون؟ لقد عشت حيوات متعددة! كنت ابن ذئبة وأتان رمادية، كما كنت ابن ملكة، وابن مومس شابة، وابن متسولة خرقاء، وابن قرويات عديدات، وابن كثيرات غيرهن ايضاً. قل، أي أم تود أن أعود إليها؟ ولماذا علي أن امتثل لطلبها؟ أجبها أن طريقي طويل، وأني لا أستطيع أن أتأخر عن المسير».

عندها رجعت الأم إلى بيتها، وبودا إلى تأمله، والطفل إلى متابعة طريقه.

استعاد تنزيين هدوءه. وظهر له وجه الراهب توكدن رينبوشه، الذي يعتبر بمثابة تجسد سابق له. كان على الهضبة صرّح صغير إلى الأسفل منها على بعد حوالي عشرة كيلومترات، عرفت عند التيبتيين باسم «شورتن». وكان رماد الراهب توكدن قد أودع هناك. حاول تنزيين، الذي أحب فيما مضى إرتياد هذا المكان للصلاة، أن يعثر على الطريق المؤدية إليه، لكنه أحس بانقباض الصدر حينما لاحظ هذا المشهد الرؤيوي، المغطى بغبار أسود. تمكن بعد جهد جهيد من العثور على المكان الذي يقوم فيه ال «شورتن». كان الصرح الصغير منهاراً ومغطى بالغبار الأسود، لكن ما زال من الجائز الاهتداء إليه. شعر تنزيين بالارتياح وقرر إعادة بناء الصرح. وكان قد بقي له أيضاً قليل من الماء وطحين الشعير، لا شك أنهما سيكفيانه لعشرة أيام تقريباً، إذا مارس التقنين. وأدرك أن عليه أن يغادر قريباً الهضاب العالية بحثاً عن الماء والغذاء في الأودية. غير أنه ظل حريصاً كل الحرص على إعادة بناء الصرح الصغير، آخر أثر على وجود دير تولنكا، وعلى النصب التذكاري لرفات الرهبان، ولا سيما لرماد معلمه الروحي الأخير.

مسح خلال يومين كل حجرة، وأعاد تأليف لغز الضريح الصغير. ثم وقق، في اليوم الثالث، إلى اكتشاف لا يمكن تصديقه. لدى رفعه الحجر الأساس للصرح، تبين له أنه أجوف. أزلق يده داخل التجويف الصغير وسحب منه رسالة. كانت الكلمات مكتوبة بيد الراهب توكدن نفسها. كان يعرف الخط والتوقيع. وكان الراهب قد طلب على الأرجح أن تزلق هنا بعد إحراق جثته. تأثر بهذا الاكتشاف حتى كادت دموعه تطفّر من عينيه. ولكن ما تعذّر تصديقه أن هذه الرسالة موجهة إليه.

«عزيزي تنزين، لئن قرأت في أحد الايام هذه الكلمات، فسوف تكون على الأرجح الكارثة الكبرى التي قضت مضجعي قد وقعت لا محالة. وبما أنك ستنجو من المحنة، ستكون «الكارما» أو القدر هو الذي وجه عقلك إليها، كالمطائر القادر أن يجد عشه بعد هجرة تمتد لآلاف الكيلومترات. لم تكفّ روحي، منذ بضع سنوات، عن مواصلة صفائها، في حين أن جسدي مصاب بالمرض، لاحظت عبر تأمل عميق الأحداث التي كانت ستقع إثر رحيلي عن هذه الأرض.

إن الإنسان، بحكم طمعه اللامحدود، على وشك أن يسطو ويخلّ بالتناغم السائد في العالم. وهو، بتخريبه الأرض، يحكم على نفسه بالفناء، لأن العالم والحياة سوف يبقيان من بعده، أما هو فموشك أن يحفر قبره بيده. ستثور الطبيعة عما قريب على طغيان البشر. لقد شاهدت كارثة كبرى تضرب الأرض وتُدمرُ جزءاً كبيراً من البشرية. غير أنني شاهدت كذلك بعض البشر على قيد الحياة هنا وهناك. ينبغي لهذه البقية الصغيرة من البشر أن تتعلم العيش من دون ارتكاب أخطاء الماضي. والحال أن قلب الإنسان مفسورٌ على هذا النحو، بحيث أنه يجازف بإعادة اقتراف الأخطاء التي أدت إلى وقوع هذه الكارثة. وأدركت أن من الضروري العودة مجدداً إلى هذه الأرض لأعلم الناجين طريقة أخرى من التصرف المسلكي، أن أعلمهم أسس الحكمة الشاملة. لسأ أدري كيف سيتم ذلك، وأي شكل ستتخذ عملية نقل هذه التعاليم. أعلم فقط أن روحي سوف تعود مرة أخرى إلى الأرض تحقيقاً لهذه الغاية المحددة. وسوف يتلقى آخرون بالتأكيد هذا النداء ذاته في أماكن أخرى.

أعلمُ أنني، لدى ولادتي الجديدة، سأدعى تنزين. إليك تتوجّه إذاً، يا تنزين هذه الرسالة. عندما تقرأها، لا أعرف كم ستكون سنك وكيف يكون عقلك؟ أعلم فقط أنك، إن كنت وحيداً وحزيناً، فلن تبقى على هذه الحالة لفترة طويلة. لا تتأخر، بل إنزل إلى الأودية لتعلم وتواسي الرجال الضالين، الذين يبحثون عن معالم ترشدتهم. فإنك إن عزيتهم فسيغفروا قلبك بالعزاء.

لا تتوقف أبداً في الطريق، بل جب العالم ما دمت على قيد الحياة. علم بلا كلل أو ملل ما ستكون تعلمته وضعه موضع التنفيذ. إذ عندما يراك الناس تعيش وينظرون إلى نور عينيك، سيؤمنون بكلامك. إن ديانات الماضي أخفقت جزئياً في مهمتها القائمة على تغيير قلب الإنسان، لأنها فضلت في أغلب الأحيان إرساء سلطتها على العالم بدلاً من خدمة الإنسانية. ولأنها أصبحت في أكثر الأحيان

مراكز سلطة لصالح مختلف الجماعات البشرية، بينما كان عليها أن تصير منارات للعالم أجمع. والحكمة التي ستقوم بنقلها لن تكون في خدمة أي عشيرة، أو أي عرق، أو أي شعب، كما لن تكون على حساب أي شخص آخر. بل ستكون في خدمة كل كائن حي، وتساعده على تحقيق ذاته بمسؤولية وحب شاملين.

هيا انطلق، يا تنزين. إنزل وواسِ الناس ونور عقولهم. إنك لست وحيداً، إذ أن قوة الطريق وحب جميع الكائنات الواعية ترافقناك.

عسى أن يثبت قلبك في الفرح والسعادة».

الراهب توكدن رينبوشه

5 الأمل

كفكف تنزين دموعه. طوى الرسالة ودسها في قفطانه. أتم عمله ونام منهكاً متمدداً بجانب الصرح الصغير.

داعبت تباشير الفجر الأولى وجهه، فأحس أنه بُعث ثانية وأن قوة جديدة تلازمه. بدأ السير وهبط نحو الوادي. فكر في كل خطوة يخطوها، وفي التعاليم التي تلقاها. تراءى له وجه الراهب دورجه ووجوه الحكماء الآخرين، كما تراءت له وجوه أصدقائه الرهبان الشبان، الذين أصبحوا جميعهم اليوم في عداد الموتى. وبدأ، عندما كانت سحابة من الحزن تلقي بظلها على نفسه يردد اسم ناتينا، كأنه لازمةٌ روحيةٌ. حينئذ تقوى قلبه وأحيا الأمل المتدفق نشاطاً وحيويةً خطاه : لا بد من العثور على صديقه، ولو ضرب في الأرض بحثاً عنها.

كورد، بوشكودون، بورتيشيو

شتاء 2011-2012